المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

أبريل 2015

406

الأب

رواية

تأليف: يورج أكلين

ترجمها عن اللغة الألمانية: د. عبد الحميد حسين

مراجعة: أ. د. أسامة أبو طالب

5583

الأب

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الأب

رواية

تأليف: يورج أكلين

ترجمها عن اللغة الألمانية: د. عبدالحميد حسين

مراجعة: أ. د. أسامة أبو طالب

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

د. حيدر غلوم خاجة

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-450-4

رقم الإيداع: 213/2015

• الأب

رواية

العنوان الأصلي

Jürg Acklin

DER VATER

© Carl Hanser Verlag München 1998

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2015م

إبداعات عالمية - العدد 406

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

مقدمة

(1)

لمحة عن الأدب السويسري المعاصر:

سويســرا هــي واحــدة من أكثــر بلاد العالــم ثــراء، ثرية أيضا بتعددها الثقافي واللغوي، ففيها أربع لغات رسـمية هي الألمانية ويتكلمهـا حوالـي 72 % مــن الســكان، تليهــا الفرنســية، ثــم الإيطاليــة، واللغة الروتورومانية التي تعـود أصولها إلى العصر الروماني واللغة اللاتينية.

ومن المعروف أن مصطلح «الأدب الألماني» يعني الأدب المكتوب باللغة الألمانية، ولا يشــمل هذا فقط جمهورية ألمانيا الاتحادية، وإنما أيضا سويسـرا والنمسا.. فجزء كبير من الأدب في سويسـرا مكتوب باللغة الألمانية.

ولسويســرا وكتابهــا مســاهمات لا يمكــن إنكارهــا فــي الأدب الألمانــي، وذلــك منذ البدايات، فشــهرة هذا الأدب (الســويســري) تعدت حدود سويسـرا الإقليمية، ونالت شهرة عالمية كبيرة على يد ماكس فريش (1911 - 1991) وفريدريش دورينمات (1921 - 1990).. والمكتبــة العربية تعرف هذين الكاتبين منذ ســتينيات القــرن الماضــي، فلهما ترجمات عديــدة إلى اللغــة العربية، لكن مصطلح (الأدب الســويســري) جاء لاحقــا وتبلور على يد الجيل التالــي لدورينمات وفريــش. هذا الجيل من الأدباء والكتاب على ســبيل المثــال لا الحصــر، بيتر بيكســل (1935)، هرمــان بورجر (1942 - 1989)، أويجــن جومرينجر (1925)، أدولف موشــج

(1924)، أورز فيدمـر (1938 - 2014)، تومـاس هورليمـان (1950)، يـورج أكلـين (1945)، مارتـن سـوتر (1948)، ميلينـا موزر (1963)، باول نيتسـون (1929)، بيتر فيبر (1968). رغم ذلك هناك أدباء سويسريون مشهورون لا يعرفهم القارئ العربي، أهمهـم روبرت فالـزر (1878 - 1956)، تم الاهتمام بإنتاج هذا الأديب في سبعينيات القرن الماضي، ومن أهـم أعماله، «الوردة»، «الإخـوة تانـر»، «حـدث ذات يـوم»، «اللـص» وغيرها من الأشـعار والرسائل الأدبية.

إن مؤلفات روبرت فالزر التي تنتمي إلى المذهب الواقعي كانت في الحقيقة الأساس لمصطلح الأدب السويسري، وينبغي أن نشير إلى أن هناك أديبين شـهيرين حصلا على جائزة نوبل في الأدب هما في الأصل سويسريان: كارل شبيتلر (1845 - 1924)، وقد حصـل على جائزة نوبـل في الأدب عـام 1919، والثاني هيرمان هيسه (1877 - 1962)، وحصل على جائـزة نوبل في الأدب عام 1946.

يرى كثير من النقاد أن الواقعية هي التيار السائد في الرواية السويسـرية الجديدة، فما بين الواقعية السيكولوجية والواقعية الفلسـفية تأتي أعمال كثير من الأدباء السويسريين المعاصرين، فالاهتمام المفرط بتصوير الواقع بكل تفاصيله وكذلك التعامل مـع الماضـي هما قضيتـان ذواتا أهميـة بالغة فـي الأدب المكتوب باللغة الألمانية بشكل عام.

من القضايا التي تهم الأدباء في المجتمع السويسري المعاصر، والتـي يكتبون عنها، الخـوف والموت والوحـدة والعزلة، وعلاقات

الرجل والمرأة، والحب والعجز والشيخوخة والضعف الإنساني، وهي قضايا إنسانية بحتة تهم الأدباء في كل مكان.

(2)
التعريف بالكاتب وأعماله:

ولد يورج أكلين في 20 فبراير 1945 في بلدة كوزناخت، والتي تطل على بحيرة زيوريخ، لأب يعمل مهندسا، ودرس العلوم الاجتماعية بجامعة بريمن بألمانيا، وكانت رسالته للدكتوراه عام 1974 عن فيلهلم فايتلينج (1808 - 1871)، والذي يعتبر أول منظر ألماني للشيوعية.

عمل أكلين بعد تخرجه معلما، واشترك في تجارب مدرسية حديثة مبتكرة بسويسرا في محاولة إصلاح تربوية في المدارس السويسرية، وقاد حركة الإصلاح هذه لعدد من الأعوام قبل أن تهاجمه المؤسسات التربوية، وقد أثارت هذه القضية كثيرا من ردود الفعل في الرأي العام السويسري.

عمل يورج أكلين كذلك كمقدم برامج في التليفزيون السويسري، وكان له برنامج عن الفلسفة وبرنامج شهير أيضا بعنوان «نادي الأدب»، والذي كان يستضيف فيه كثيرا من المفكرين والأدباء.

ويعمل أكلين حاليا كمحلل نفساني في عيادته الخاصة في مدينة زيوريخ.

وقد حاز على عدد من الجوائز الأدبية في ألمانيا وسويسرا،

منها جائزة فرديناند ماير وجائزة تسوليكر للفن عن مجمل أعماله الأدبية، وجائزة مدينة زيوريخ للكتاب.

من مؤلفات أكلين:

1 - «الحالم الوحيد» - ديوان شعر 1967

2 - «ميخائيل هوبتلي» - رواية 1969

3 - «إلياس» - نصوص أدبية 1971

4 - «صعود المنطاد» - رواية 1980

5 - «رجل الكانجرو» - رواية 1992

6 - «زوجا التانجو» - رواية 1994

7 - «أغنية الضفدع» - رواية 1996

8 - «الأب» - رواية 1998

9 - «معيب» - رواية 2002

10 - «الثقة شيء طيب» - رواية 2009

ينتمي أكلين إلى النخبة السويسرية التي تمثل اليسار الليبرالي، فهو يعبر في رواياته عن أزمة الإنسان المعاصر والاغتراب والانكفاء على الذات الذي يعاني منه الفرد في أوروبا اليوم. وتصف أعماله بشكل واقعي العلاقات الإنسانية والأزمات بين الأشخاص والنزاعات وصراعات الأجيال.. وهو يعبر عن ذلك بشكل مبدع ومؤثر وقاس، وأعماله لا تخلو من ملامح العبث، لكنها تعتبر ككثير من أبناء جيله تجسيدا للتيار الواقعي في الرواية السويسرية الجديدة.

تعتبر رواية «الأب» تسوية حساب الابن مع أبيه عبر رحلة في ذاكرة الابن الذي يقوم بدراسة عائلية بعين محلل نفساني.

تطرح الرواية التي لا تخلو من ملامح السيرة الذاتية العلاقة بين الأب والابن، وموضوع الشيخوخة والمرض والعجز، وكذلك وصف لمواقف الأب وسلوكه في حياته مع أسرته وابنه بالذات.

يعالج أكلين بأسلوبه الساخر التهكمي ولغته التي تميل إلى لغة كتّاب مسرح العبث قضايا إنسانية واقعية خطيرة يعاني منها المجتمع المعاصر، منها قضية التصالح مع الذات ومواجهة الماضي، ومحاولة التغلب عليه، لكن هذه القضايا هي إنسانية خالدة في المقام الأول، تشغل وتهم الإنسان في كل العصور، وليس بالضرورة أن يجد الكاتب المعاصر لها حلا.

يقتحم المؤلف نفسية الابن ويتوغل فيها، يتذكر ويحلل ويناقش وينقد سلوك الأب. يقول أحد النقاد عنه: «إن أكلين يكتب نثرا موجعا، يتميز بالجرأة الشديدة والقاسية كما أن لديه القدرة على التعبير عن مكنون نفسه وتعرية ذوات الآخرين دون خوف أو مواربة أو نظر للعواقب».

تأثير إبسن واضح في الرواية وكذلك ستريندبرج، فهو أول من وظف التيار النفسي في الأدب، ومسرحياته تتوغل في العقل الباطن، لكن التأثير الأكبر كان تأثير كافكا في رسالته «رسالة إلى الأب»، هذا التأثير لا يمكن إنكاره، فقد قدم كافكا نموذجا للعلاقة بين الأب والابن، قلده وتأثر به الكثير من الأدباء حتى اليوم، فهو يرى صورة الأب كطاغية مستبد يفعل ما هو مقتنع به. إن هناك ملامح مشتركة ما بين كافكا وأكلين، فكلاهما حياته مليئة بالحزن والتعاسة والمعاناة على مستوى الأسرة.

يعترف المؤلف بأن كثيرا من ملامح الأب في روايته هي عن

أبيه نفسه، كما أن للمؤلف أخا معاقا، فهو يكتب عن خبرة شخصية بحتة، وهو يحاول قدر جهده استكشاف خبايا وخفايا النفس البشرية، وهو خلال ذلك ينزع في بعض الأحيان إلى التناقض ويميل إلى المبالغة.

تتميز نصوص أكلين بوصف مكثف ودقيق لسلوك الشخصيات، ويقول المؤلف إن الكتابة تعلمه التغلب على خوفه الذاتي، أما مخاوف الآخرين فهو يعالجها في عيادته الخاصة كمحلل نفساني، وهو يرى أن الخوف هو أثقل عبء على كاهل الإنسان.

يجيب أكلين عن السؤال: «لماذا تكتب عن الأب؟»، «إن الأب الذي يتقدم في العمر، هذا الأب القدوة تهتز صورته بعنف وقوة عندما يصير ضعيفا وعاجزا.. هذا الأب الذي كان طوال عمره شخصا قويا يحتاج الآخرون إلى حمايته، هو الآن الذي يحتاج الحماية».

ورغم أن المؤلف يتناول الموضوع بشيء من القسوة، لكنه يرى في ذلك نوعا من أنواع المصالحة مع الأب، فهو يقول عن أبيه: «إن لديّ خوفا دائما من أنني لا أستطيع فعل شيء بشكل أفضل مما فعله أبي».

إن المؤلف يحب أباه، ولكن تعبيره عن هذا الحب يختلف عمّا نعرفه نحن الشرقيين، فهو ينقده ويحفر في ماضيه، ويظهر عيوبه، ويذكر أنه كان يقول له ذلك أثناء حياته، وعندما كتب أكلين الرواية ونشرها رفض الأب قراءتها، ربما لأنه يعرف ابنه ويعرف رأيه فيه.

فالجرأة هي أهم ما يميز المؤلف في الكتابة عن أبيه، فهي أقوى ما يميز الأدب الهادف. إن التعامل مع الماضي والنبش فيه هو محاولة للتغلب عليه، ولربما كان ذلك نوعا من أنواع الندم غير المباشر، والذي يريد الكاتب أن يعبر عنه.

يرى أحد النقاد «أن أكلين يفعل مثل الهنود الحمر الذين يحملون آباءهم عند الموت فوق أكتافهم ويصعدون بهم إلى الجبل كي يدفنوهم هناك. وهذا يذكرنا أيضا بأسطورة إينياس اليونانية الرومانية الشهيرة، حيث يحمل أباه إنخيسيس فوق كتفه ويهرب من طروادة، وإينياس هو أب الرومان في الأساطير كما هو معروف».

يرى الروائي السويسري أدولف موشج أن كتابات أكلين تمثل الواقعية على الطريقة السويسرية، ويرى نقاد آخرون أن روايات أكلين هي خليط بين الواقعية والطبيعية، وبشكل عام تعتبر الواقعية هي التيار السائد في الرواية السويسرية المعاصرة.

في رواية «الأب» يختلف شكل الرواية السردي عن الشكل المألوف من حيث وجود حبكة وبداية ووسط ونهاية لحدث الرواية، فليس في الرواية وحدة الزمن التقليدية، وأحداثها كلها تدور في يوم واحد، وتنتمي إلى التيار المعروف في الرواية الحديثة باسم تيار الوعي الذي يعتبر جيمس جويس خير ممثل له.

المونولوج الداخلي هو التقنية الأهم في الرواية، وهو الأداة الفنية الوحيدة التي يلجأ إليها المؤلف، فهي تشكل العلاقة بين أفكار المؤلف وتدفق الوعي عند الشخصية. إن الأحدث في الرواية

والتي تبدأ من لحظة الخروج من بيت رعاية المسنين حتى انزلاق وسقوط فالتر وموت الأب في النهاية، كل هذه المشاهد تتم في يومٍ واحد، ومعظمها يدور في ذهن بطل الرواية.

(3)

- ثيمة «الأب» في الأدب الأوروبي:

لقد تناول الكتاب الأوروبيون بداية من معالجة أسطورة «أوديب» لسوفوكليس حتى الروائي النمساوي المعاصر أرنو جايجر (1968) في روايته الملك القديم في منفاه (2011) موضوع العلاقة مع الأب.

وكان أشهر من تناول موضوع العلاقة مع الأب في الأدب الحديث هو الكاتب السويدي أوجست ستريندبرج (1849 - 1912) في مسرحيته الشهيرة «الأب»، وفرانز كافكا في «رسالة إلى الأب»، والتي كان لها تأثير كبير للغاية على الأدباء بعده. كذلك عالج توماس مان (1875 - 1955) موضوع الأب في روايته «بودين بروكس» والنمساوي بيتر هاندكه (1942) في قصته «حكاية للأطفال». كذلك أوفه تيم (1940) الروائي الألماني المعاصر في قصته «أخي على سبيل المثال» في عام 2003، والتي يعرض فيها من سيرته الذاتية الكثير، ويطرح موضوع العلاقة بين الأب والابن، أيضا الروائي الألماني فولف فوندراتشيك (1943) في روايته «الهدية».

تعتبر ثيمة الأب ثيمة إنسانية، وفي المجتمع العربي بالذات

يشــكل الأب ســلطة مطلقــة أو شــبه مطلقة.. وفــي حالة ضعفه ومرضــه أو موته تهتز أركان الأســرة إن لــم تصب بالانهيار تماما، وهذا الموضوع قريب إلى قلوب كثير من الكتّاب الشــرقيين أيضا، فشــخصية الأب لا تعتــرف بالضعــف علــى الإطــلاق وترفــض العجــز.. والأب (الرجــل) ولــد قويا ويريــد أن يموت قويــا، وهذا مناف لطبيعة البشر، وهنا يكمن السر الدرامي، وتتولد الجاذبية الأدبية.

د.عبد الحميد حسين

المراجع

Lexikon der Schweizer Literatur، Lenos Verlag، Basel 1991

Bartenschlager Wilhelm، Deutsche Literaturgeschichte، Leitner Verlag، Wien 1992

Pressemappe Juerg Acklin، Verlag Nagel & Kimche، Zuerich

www.wikipedia.org-juerg Acklin

www.bibliomedia.ch-juerg Acklin

Zeitungartikel von und ueber Juerg Acklin، Sueddeutsche Zeitung – Die Zeit، Dezember 2013

Acklin Juerg، Der Vater، Roman، Zuerich 1998

الأب

في ليلةِ الصيف تلك، حمل الابن أباه فوق ظهره. ذلك العنيد، كثير النسـيان، العجوز المحاط بالحفاضـات، في تلك الليلة من شـهر أغسطس، عندما صعد به الجبل، كانت ماكينات الحصاد العملاقة تنتشر بين الحقول، تعمل باستمرار، ولا تتوقف، تقطع ممرات الحبوب بقواطعها ذات الضجيج العالي، محدثة ضجيجا أعلـى بمحركاتها عند الاسـتدارة. العجوز الذي تلاشـت قواه، لم يعد حِملا ثقيلا فوق ظهر الابن القوي، كان الثقل في رأسـه فقط. هذه الماكينات العملاقـة، ماكينات الحصاد، كانت تبحث بكشـافات الضوء عن الطريق، عاليا عند المنتجع الصحي، مثل آلات مناطق التزحلق في الليلة الجليدية تحت السماء السوداء.

أما هذه الكائنات من خارج الأرض، والتي تبدو كأنها هبطت للتـو من الفضاء، فلم تكن سـوى مزارعين يرتـدون قبعات أذن مبطنة سـميكة، جالسين عاليا فوق المحركات المرتجّة، محدّقين في ضوء الكشافات الساقط على السنابل المائلة. ظهر العرق على جبهة ڤالتر، وتقطّر كمجرى بارد إلى أسـفل ظهره، وتجمع قرب حـزام البنطال عند مفصل الفخذين. فقط قبل سـاعات قليلة، كان قـد وجد قصاصة ورقية فوق طاولـة المطبخ:«من فضلك.. ضرورة الاتصال بمدير دار الرعاية، إن أباك فقد صوابه، سوف

أقيم بضعة أيام لدى كاترين، علاقتنا لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، مارا». كتابتها العجولة، وكيف كانت الورقة ملقية، حروف اسمها أكبر من الخبر نفسه، شكل الكتابة ترك أثرا غير مريح لديه، طريقة استخدامها للروابط بين حروف الكلمات أشعرته بالحرج، لا يكتب بهذه الطريقة سوى شخص مبتذل، إنها تشاهد التلفاز كثيرا وتكتب القليل جدا.

خطا ڤالتر فوق البلاط، وترددت خطواته، كانت مارا قد ذهبت. كان يسعد في الماضي بوريقاتها الصغيرة، قال لنفسه: لا تفكر كثيرا، انتهى الأمر، إن الأب في حاجة إليّ. أخذ ڤالتر حقيبة الظهر الكبيرة الخاصة به من خزانة الثياب، والتي كان الأب يضع بعض متعلقاته فيها عند الحاجة، وطفق خارجا إلى الشارع.

لعينيه بدت الشمس الغاربة في ضباب المنطقة الصناعية وكأنها قمرٌ ياباني أحمر. ستكون هناك اليوم بالتأكيد عاصفة رعدية، كان مبنى دار الرعاية يشبه من بعيد سفينة ترفيه جانحة، وهيكل البناء فوق بئر المصعد وكأنه مقر قيادتها، والمبنى الخرساني غير المطلي يلمع باللون الأحمر في شمس الغروب. مجموعة أنيقة من الزهور الرائعة، أحواض فيها زهور البيجونيا، وزهور البورتولا الصغيرة، أوان بلاستيكية بيضاء مليئة بزهور البيتونيا البرية.

العشب مقصوص قصيرا كقَصة فرشاة، وأحواض الورود خالية من الأعشاب الضارة. التربة طرية وكأنها باليد مبشورة. كل شيء جاهز للتفتيش في أي وقت، خلف الأبواب الزجاجية التي تغلق أوتوماتيكيا، تشم رائحة قديمة لاذعة، أرضيات لامعة، أبواب

الدخـــول ذات ألواح زجاجية نظيفة. على الجدران بعض لوحات الطباعة الحجرية لكاريجييت: شيلين نورزلي مع جرسه الضخم، كما لو كانوا أطفالا كبار الســـن هؤلاء من النساء والرجال! يسدّ مســـام جلده، ويتنفس فقط من خلال الفم، يريد أن يجعل الموت والوهن بعيدَين عنه. يريد أن يمرّ مهرولا بعيون مغلقة على هذه المومياوات الحية، لكنه في ذات الوقت يحس بانجذاب ســـحري، ينظر بطـــرف عينه إلى داخـــل الغرف، إلى الوجـــوه المحتضرة ذات الأنـــوف المدببة، ينظر خلســـة إلى تجويفـــات العيون البنية الصفراء، يغدو متلصصـــا لحالة الاضمحلال هذه. في الممرات تسود حالة من التذمر والتوبيخ، من القهقهة والشكوى، من الغناء والهمهمة. في الطابق الأول تشـــم رائحة دخان نفاذة، كما لو أن أحدا قد قام بشـــيٍّ نقانق فـــي الهواء الطلق. في برك المياه على الأرض تتعكس أشـــعة الشمس الأخيرة المنحدرة، كانت الأرضية البلاســـتيك في الأمام قد غمرتها الميـــاه، وخرطوم إطفاء مُلقى متعرجا على الأرض وكأنه أفعى ضخمة ميتة، والمياه تتسرب من صمامه الألومنيوم. صاح ڤالتر في الممرضة المهرولة:

- ما الذي يجري هنا؟

- إنه حريق.

- أين؟

- في غرفة 209.

إنها غرفة أبيه.

كانوا قد نقلوا المشاكس العجوز إلى نهاية الممر، حيث لا ينتبه إليه أحد علـــى الأقل عندما يصرخ حوله. ركـــض ڤالتر، والمياه تتسرب يمينا ويسارا تحت نعلي حذائه.

- توقف!

أوقفه رجل شرطة.

- أنا أبحث عن أبي.

- أين هو؟

الغرفـــة المركزية كانت مزدحمة بالنـــاس، ممرضات، عاملون في مجال الرعاية، اثنان من رجال الإطفاء، شرطي، مدير الدار، وأبوه على كرسيه المتحرك. شكله يبدو على ما يرام، الوجه يبدو مسودا، الشعرات القليلة المنكوشة يبدو بها حرق طفيف، محلوقة من الســـخونة وكأنهم قاموا بكي شعره، لكن تعبيرات وجهه بدت جريئـــة، التقت نظراتهما، حينهـــا لمعت عيناه بخبث. لا يمكن أن تحصل منه على أي شيء، قال مدير الدار:

- تصور ماذا كان ممكن أن يحدث! دار ممتلئة بكبار الســـن، منهـــم من هو غير قادر على المشـــي، كارثـــة كانت من الممكن أن تحـــدث. لقد احترقت الغرفـــة تماما؛ إنه فعـــل ذلك عن عمد، أســـتطيع أن أؤكد لك هـــذا، أنا أعرف والـــدك، إنه يذهب إلى أقصـــى الحدود، لو لم يتعامل رجـــال إطفاء الدار مع الأمر على وجه الســـرعة ما كنا قد تمكنا من إنقـــاذه في آخر لحظة؛ لقد أضرم النار متعمدا، الآن يعتبر الأمر منتهيا، وسوف يتم نقله إلى قسم الطب النفسي.

وضع ڤالتر يـــده على كتف أبيه، كان هناك القليل من اللحم، ومن خـــلال البدلة الرياضية الرقيقـــة ذات اللون البني الداكن، أحس فقط بالجلد الدافئ فوق عظام الكتف. صار الأب منكمشا، شكل جسده جعل ڤالتر يفكر في دجاجة تم نتف ريشها.

- لقد كنت محظوظا يا أبي، الحروق لا تستحق الذكر، فقط

احمرار خفيف، وبعض الشعرات المتجعدة، ألا تريد أن تقول لي ماذا حدث، سيكون الأمر أسهل بكثير.

لكن العجوز لم ينطق، احتفظ بشفتيه مضغوطتين، كان صعبا تحديد فمه ما بين شعيرات لحيته البيضاء القصيرة، كان عنيدا مثل ذكر ماعز.

– هل حقا فعلت ذلك متعمدا؟

فكّر ڤالتر.

– هل لعبت بالنار؟ هل تأملت الشمعة فقط في البداية؟ ورأيت كيف كان لهيبها يرقص حول الفتيل، ربما نفخت فيها قليلا؟ ورأيت كيف تراوغ شعلة اللهب نفخة الهواء؟ وكيف تتمايل هامسة إلى الجانب؟ هل أسقطت الشمعة بحركة طائشة؟ وبدأت ورقة الجريدة في الاشتعال؟ وبقيت أنت تشاهد، كيف أن حافة الورقة تحولت إلى اللون البني مكونة نصف دائرة صغيرة؟ وكيف تراقص فجأة لهب أصفر يميل إلى البياض وعادت الورقة بسهولة إلى وضعها الطبيعي؟ وكيف اشتعلت النار فجأة؟ ربما لم يحدث شيء في المرة الأولى، والورقة المتفحمة تنهار على نفسها وتسقط ثانية فوق الطاولة، وتنكمش قبل أن تتحول إلى بقايا «سخام».

كل ذلك كان ولا يزال مجرد لعب وحسب؟ هل نفخت فيها وعاد الجمر يشتعل من جديد؟ أم وضعت ورقة أخرى فوق الشمعة؛ ولما اشتدت السخونة اضطررت فجأة لتركها تسقط فوق الطاولة؟ لقد امتدت النار والتهمت ورقات أخرى للجريدة، كان مفرش الطاولة محروقا في ذلك الحين، ثم جلست أنت مثل باحث تشاهد ماذا يحدث مشدودا وفجأة اشتعلت النار

بالستارة، واشتدت السخونة، وعندما خطفت الحرارة أنفاسك، دفعت نفسك بعيدا عن الطاولة بكرسيك المتحرك ورجعت إلى الخلف قليلا. هل صحت؟ هل صرخت؟ ماذا فعلت؟ كيف وجدوك؟ كلا، كان ينبغي عليك ألا تصرخ، كانت الممرضة فقط تريد إعداد السرير للمساء، وعند فتح الباب بدأت النار في الاشتعال بسبب تيار الهواء.

كنت تأكل وأنت تسعل على المائدة، كان على الممرضة أن تُخرجك بكرسيك وتوصد الباب خلفها.

سوداء صارت الغرفة ولون دهان السقف أصبح محترقا وجانب من الطاولة متفحم، ظهرت الفقاقيع على طلائها الأصفر، وبدا شكله مثل جبن الراكليت. كل شيء به بخار، ورائحة دخان رطب كريهة تفوح من المكان. كانت تُذّكر ڤالتر بالمزارع المحروقة التي كان يراها بالقرى في نزهات الأحد وهو طفل. لقد انتزعته رؤية البقايا السوداء في الأسقف المتموجة من المزاج الجميل، وجعلته يتوقف برهة قصيرة غارقا في أفكاره، لقد تخيل أن المبنى تحول إلى لهب ونيران مشتعلة. وانعكست النار في عيون الناس المحيطة بالمكان، بينما كانت الماشية تخور في الحظائر، وطفل يختنق في مهده.

- لقد احترقت الغرفة رقم 209 تماما، أبي لم يعد بإمكانه العودة، مقر إقامته الأخير صار حفرة سوداء كريهة الرائحة. لقد كان مدير الدار على حق، لقد فعلتَ ذلك متعمدا، إنني أعرفك، عندما كنت تشعر بالظلم، كنت تدافع عن نفسك، كنت تنتقم دائما، لقد كان ذلك جزءا من شخصيتك؛ عندما كنت تتلقى غرامة لا مبرر لها بخصوص ركن السيارة؛ كنت تسرق

بنفس قيمة الغرامة زهورا في شتاد بارك، أو كنت تحطم بمفك البراغي بسكين الجيب الذي تحمله دائما لوحا زجاجيا في ماكينة موقف السيارات. عندها فقط كنت تشعر بالراحة. لم تسقط الشمعة بسهولة من تلقاء نفسها، من خلال حركة خرقاء. كلاّ، لقد أضرمت النار في حجرتك متعمدا، كنت تريد أن تنتقم: «عندما أموت ذات يوم، يجب أن يموت البعض معي»، كنت تكرر ذلك دوما، لقد ظللت مخلصا لذاتك، نهاية قوية، وكنت تأخذ موتك في الاعتبار، من أجل ذلك ترى سفينة الترفيه الجانحة تضيء في توهج الحريق، وفي الطوابق خيالات ظل لأشخاص شاردة، شيء خطير كان حدوثه جائزا لكبار السن هؤلاء من النساءِ والرجال.

كانَ الرعب الكبير سيصبح سيد الموقف، بعد اليوم لن يكون هناكَ انتظار ممل للموت. لقد صرت يا أبي العزيز في أيامِ عمرك الأخيرة مشعلا للحرائق، كنتَ تريد طوال الوقت حمايتيَ منها وأنا طفل. لقد تحملت المخاوف بسبب ذلك، وتملكك الرعب، عندما سمعت أنني لعبت سرا بأعواد الثقاب الصغيرة وقد سقط واحد منها متفحم على الأرضية الخشبية، ولأنك كنت تريد أن تمنع ذلك وللأبد، وتريد أن أشعر بذلك في جسدي، وكيف أنه كان شيئا خطيرا، فقد أخذت إصبعي السبابة الصغير ووضعته فوق شمعة مشتعلة، حتى صرخت، وتكونت فقاعة بإصبعي الصغير وتدخلت الأم.

بعدها لم تشعر حتى بالخجل، كنت تحس أنك على حق، لم تكن ساديا؛ كان الأمر بالنسبة لك يتعلق بالمبدأ فحسب. لأنك كنت تريد حمايتي من الأسوأ، وهذا الأسوأ كان طفلا محروقا

في مســكن محترق. حياة محطمة، كنت لا تستطيع تحمل رعبك عندمــا ترى بقايا لحم ابنك المحــروق في نعش الطفل الأبيض. كان عليك أن تفعل شيئا، والآن، هل أقوم بمسك إصبعك الضامر وأضعه فوق شــمعة مشــتعلة كذلك؟ هل أطلــب ولّاعة غاز من ممــرض، وآخذ يدك؟ أنت أيضا لن يمكنك الدفاع عن نفســك، ســوف أمســك يدك، الجافة، المليئة بالجلد الهزيل، يد العجوز الممتدة، وبحذر ســآخذ إصبعا منهــا، وأضعها فوق اللهب، حتى تئن، وحتى تتكون فقاعات بجلدك الجاف المتشقق، بعدها سأقوم بغمــس إصبعك في كوب جاهز من المــاء، لأنه في نهاية المطاف لا ينبغي أن تحس بمعاناة لا داعي لها.

لم يكن ذلك غير مثال للردع والتخويف، والآن ســوف أصيح، يــا مدير الدار، يمكنك الاحتفاظ به، فهو لن يشــعل غرفته بعد الآن، أنــا أضمن لك ذلــك، أبي لا يريد أن تكون له علاقة بالنار بعــد اليوم. لكــن الواقع بدا مختلفا، اليوم يجــب أن ننقله، قال المدير هذا بتعبيرات وجه وكأن الحق في جانبه. إن أباك بالفعل خطر علــى الجميع، كل الموجودين كانوا مــن الممكن أن يموتوا، يختنقــوا في الأســرّة أو يُحرقوا «يختنقــوا أو يُحرقوا»، كررتها تلقائيا امرأة عجوز ذات جمجمة شــبه صلعاء وحاجبين أسودين كثيفين. «يختنقوا في الأســرّة أو يُحرقوا»، كررتها العجوز مرارا، لقــد كان الأب حقــودا ولقد عذبنا كثيرا، أنــت لا يمكن لك أن تتخيل، قالها المدير.

ذات مرة قذف ممرضا بطبق الحســاء في وجهه، وكان على وشــك أن يطعن ممرضة بمقص في الجزء العلوي من فخذها. في هذه الفوضى كان يســمح لنفســه بالتمادي، ويتبول متعمدا

في الفراش، رغم أنه لم يكن مصابا بداء سلس البول، لكنه أراد أن ينهكنا. كان ينادي باستمرار وعندما تأتي إحدى الممرضات، يكون دائما قد فات الأوان. «كانوا من الممكن أن يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا»، كررتها المرأة العجوز لا مبالية، (يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، أخرجوها من هنا، أنا لم أعد أحتمل ذلك، صاحت ممرضة، أنا لم أعد أحتمل سماعها. قال الشرطي بنبرة واقعية:

– يجب الآن أن أحرر محضرا.

(ليختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، صاحت العجوز ذات الجمجمة الصلعاء والحاجبين الكثيفين. سأل مدير الدار:

– هل الأمر يحتاج محضرا؟ لكن عليك أن تعمل على عدم نشر الخبر في الصحف، لأن ذلك سيكون دعاية سيئة لدارنا، بالذات في الوقت الحالي، أنت لا يمكن أن تتخيل كيف أننا نصارع من أجل الحصول على عملاء، أيضا هنا المنافسة في السوق صعبة وقاسية، لقد تم إلغاء الدعم الحكومي منذ فترة طويلة.

قال ڤالتر:

– لكن هذا أمر غير إنساني.

– أنا لا أريد أن أسمع شيئا، خذ أباك معك إلى البيت.

قال المدير.

أقوال كبيرة تُقال، وعندما يتعلق الأمر بالفعل يحدث التراجع. مكان صغير جيد، تخيل ڤالتر، مكانا صغيرا جيدا للأب، الذي منحني فيما مضى، ركنا صغيرا في غرفة الحرف بجانب طاولة عمله، وسلّحني بكل ما هو ضروري؛ مكبسا مثبتا بالطاولة،

ولوحا خشـــبيا بـــه مكان لتعليـــق الأدوات، مثل مـــا لديه، فقط كل شـــيء كان أصغر حجما. بعناية ســـوف يجردونك من البدلة الرياضية، وعليك أن تمد ذراعيك، الذراع اليســـرى أولا، بعدها اليمنى، بعدها ســـوف يديرونك بعض الشيء، ويرفعك الممرض إلى أعلى قليلا، حتى تتمكن الممرضة من أن تشـــد السروال من فوق مؤخرتك، وتنزع لصقة الحفاضات، ســـوف يضعون بطانية فوق نصفك الأسفل، ثم يتوجهون بك وأنت فوق كرسيك المتحرك إلى غرفة الاســـتحمام، ويضعونك تحت الدش ويقومون بغسلك بالصابون. لن يكون هناك ثمة فرق، فهم يقومون بغســـل ظهرك، قدميك، أو قُبُلَكَ، كل شيء بدقة وفقا للوائح، بإتقان وبلا عاطفة. تخيـــل أنه في بعض الأحيان تومض الرغبة فجأة لدى أحد كبار السن، فلا داعي لإضفاء أهمية على هذا الشأن، فقط بعض الماء البارد وبعدها يزول كل هذا المجد. ســـوف ترتدي بدلة رياضية نظيفة، والشـــعرات المجففة القليلة ســـتظل ملتصقة بالجمجمة مثل زغب، وسيدفعونك بحذر إلى المصعد، وكأنهم يقودونك إلى صالـــة الطعام، والأبواب التي تغلـــق أوتوماتيكيا في الممر، تفتح كمـــا هو الحال دائمـــا بحركة اهتزازية خفيفـــة. لكنهم في ذلك الوقت سيدفعونك بكرســـيك المتحرك إلى المخرج، ربما يضعون دثارا فوق ركبتيك، رغم سخونة الطقس الرهيبة، بالضبط وفقا للوائح، فكبار السن لديهم دورة دموية ضعيفة.

وفي الخارج ســـتنتظر سيارة عادية، ربما يأخذك مدير الدار شـــخصيا في ســـيارته ماركة تويوتا كامري، ربما يتملكه الخوف من أن تقوم بتلويث مقاعد ســـيارته، إنـــه لا يريد هذه الرائحة، رائحة كبار الســـن وبالذات في سيارته الخاصة. يمكنني بشكل

ما أن أتفهم ذلك لأنه في النهاية أيضا إنســان. يقف في الخارج تاكسي، 44444، ويخرج سائق ودود من السيارة، ويدخل قميصه في البنطال، ويلقي وبحركة محســوبة تماما بعقب سيجارته في قالب زهور البيتونيا، ويلقي نظرة مريبة إلى الراكب في كرســيه المتحرك؛ هل يجب عليه حمله إلى الســيارة؟ هل معه مرافق؟ أم عليه أن يقدم مســاعدة إضافيــة دون مقابل؟ يا أبي عليك الآن أن تأخــذ قرارا، فــي مثل هذه المواقف كنت دائما تفعل شــيئا، لمــاذا الآن تخذلني فجأة؟ هل تعرف ماذا يعني أن يتم نقلك إلى مستشفى الطب النفسي للشيخوخة؟ سيملؤون جسدك بالأدوية، لن تراودك فكرة أن تضايق الممرضات أو تضرم النار، ربما ترقد في السرير طوال اليوم، ويقومون بتحريكك من حين لآخر، حتى لا يتقرّح جسدك.

ســيفتحون النافــذة، حتى تمتلئ الغرفة بالهــواء النقي، ولن ينقصك شيء، سيهتمون بك، بالضبط وفقا للوائح. وربما توجد عــلاوة على ذلك في مكان ما في القســم، متدربة، تربِّتُ بيدها فوق رأسك، ذلك لأنك قريب يا أبي جدا من السماء، من يدري. وفيمَ ســتفكر طــوال اليوم؟ هل ســتقوم بالتنزه فــي ذاكراتك؟ هــل لديك صور خاصة؟ والتي لا يمكنــك التخلص منها؟ والتي تطاردك دائما؟ هل ســتعاني من الكوابيس؟ أم ستذبل مثل نبات في سلام؟ هل ستستطيع التعرف عليّ؟

سيضعون غطاء بلاستيكيا فوق المقعد الخلفي، لا شيء يمكن أن يحدث، لقد كان في التوّ بدورة المياه، وبشكل عام فهو محاط بالحفاضات بإحكام. لا داعي للقلق، الآن ســيؤخذ الأمر بجدية يا أبي العزيز، فهل تريد أن تبقى صامتا؟

وهنا سأل الشرطي فجأة:

- هـل والدك منزوع الوصاية؟ لماذا كانت توجد لديه شمعة مشتعلة في الغرفة؟

قال ممرض شاب:

- إنه كان يطلب دائما شمعة عند تناول الطعام. وعندما كان يريد أحدنا أن يبعدها عنه، كان يظل يصرخ حتى نعيدها إليه، ربما كانت تمثل له نور الحياة.

(ليختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، صاحت فجأة العجوز ذات الجمجمة الصلعاء والحاجبين الكثيفين مرة ثانية وعلامات الانتصار على وجهها، (يختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا).

في هذه الأثناء وضع الأب يده فوق رأسه، قال الابن:

- ربما كان هناك شيء يؤلمه، أعطوني من فضلكم فوطة مبللة. لا.. أنا سأذهب به إلى الحمام.

قال الابن للشرطي:

- هل تحتاجني للتحقيق؟ فيما بعد، عندما تعود مرة ثانية، إن هذا يكفي، فإنك لم تكن موجودا عند اندلاع الحريق.

ممرض شاب، ذو شعر قصير مصبوغ باللون الأصفر بيّن له الطريق.

دفع الابن أباه على كرسيه المتحرك خارج غرفة الانتظار، مارا بساكني الدار، المندهشين بما حدث، والذين يجلسون في ثياب النوم على حواف أسِرّتهم أو الذين يمسكون بمقابض الأسِرّة مرتعشين يحاولون حفظ توازنهم.

الممرضات المساعدات يمسحن الماء بماسحات الإسفنج والمطاط، والتي كن يعصرنها فوق الدلاء البلاستيكية الموجودة

في الحمام، مرّ الابن بفوطة مبللة فوق رأس الأب، قال الممرض: ربما ينبغي أن نحممه. أنا سأحضر لك ملابس داخلية نظيفة وحفاضات وبدلة تدريب رياضية، هل تستطيع بمفردك القيام بذلك؟ لماذا لا يستطيع الابن بمفرده إنجاز ذلك مع الأب؟ إن هذا من شأنه أن يكون مثارا للسخرية.

فتح سحّاب السترة الرياضية وسحبها فوق رأسه، قائلا: هل يمكن أن تساعدني وترفع ذراعيك بعض الشيء. بعد ذلك يأتي القميص الداخلي.

لم يستطع أن ينظر إلى جسد أبيه، كان يشعر بالخجل، وينظر إليه خلسة من طرف العين، ويود لو أغلق عينيه أمام هذا العجوز ذي اللحم الأبيض.

قال الممرض: ها هي الملابس الداخلية النظيفة وبدلة التدريب الرياضية، هل يمكنك أن تنجز هذا بمفردك؟ أيضا مع الحفاضات؟ شكرا. هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟ كلا.. أنا أريد أن أصير طبيبا، هذا هو التدريب العملي لي وحدي مرة أخرى. ستخلع البنطال، عليه أن يرفع الأب، بالذراع اليمنى يمسك الظهر النحيل.

أحس بجلد العجوز الدافئ الذي كانت رائحته كالدخان، هكذا تكون رائحة شخص يدفئ نفسه على النار، عندما يحمّر نقانق على سيخ، هذه الرائحة لا يمكن للمرء أن يزيلها من ملابسه. إن رائحتك كشيء طازج مدخن.. تجنب نظرة الأب، حينما رفعه عاليا، وقام بإمساك البنطال، وشده لأعلى مع السروال الداخلي على الفخذين. الآن سترتدي الجوارب فوق القدمين، الحفاضات لن أفتحها إلا في الحمام.. حمل الابن أباه عاليا، الأب الذي

كان ذات يوم، قويا، رياضيا، والذي كان يســتطيع أن يتسلق قائم التسلق بساقين مثنيتين. الحفاضات كانت ثقيلة، مشربة بالبول، وقُبُلُه صار متجعدا من البلل.

ألقــى ڤالتر الحفاضات فــي دلو، ثم فتح صنبــور المياه، واختبر درجة حرارة الماء، وقام بتحميم الأب. وبإسفنجة مليئة برغوة الصابون قام بتنظيفــه. تجنب النظر في عينيه، وإلى أعضائه التناســلية، بعدها قام بلف الأب بفوطة حمام كبيرة بيضاء خشــنة تابعة للدار. وتذكر ڤالتر ما قاله الأب في ذلك الوقت: خذ الجرة التي بها رماد جســدي بعد حرقه؛ واذهب إلــى زيورخر لأوبرلانــد، اصعد فوق التل، وانثــر رمادي، أنا لا أريد قبــرا، عليك أن تفعل ذلك من أجلي، إنه واجب الابن وخدمة الحب الأخيرة. لقد طلب هذا منذ عدة سنوات، أثناء إحــدى النزهات. بعدها أجلس الأب فوق كرســيه المتحرك، والذي كان قد وضــع الحفاضات فوقه، ومدها ناحية الظهر وفوق موضع ذكورته، ولصق جزأيها فوق بعضهما من الجانب بشكل محكم.

الآن تأتــي الســراويل الداخلية. ســمع الممرضــات يدفعن بالماســح تجاه باب الحمام، ســمع عصر المياه من إســفنجات الاســتحمام مســببة صوتا كالصفيــر وهي تتدفق فــي الدلاء. الســراويل الداخلية ناصعة البياض، وحجمها كبير بشكل كاف، كــي يتم لفها حول الحفاضات، في الحال ســوف يأتون لأخذك يــا أبي، هل تفهمنــي؟ ومد القميص الداخلــي فوق رأس الأب، وفي أثناء ذلك قام بنكش شعره. إنها خدمة الحب الأخيرة. كان يحكي له الأب فيما مضى: لا يجوز أن تخذل رفيقا في الحرب،

لا يمكن للمرء أن يسمح بترك رفيق جريح للأعداء، فنظراته اليائسة ستطاردك طوال العمر.

وماذا يجب عمله، سأل الصغير أباه آنذاك، ربما كان في السادسة أو السابعة من العمر. عليك أن تطلق عليه النار إذا طلب منك ذلك. إنها مواقف في الحياة، يجب أن تحسم الأمر فيها سريعا يا صغيري. ويجب ألا نترك الحيوانات تعاني، لقد شهد الفتى هذا بنفسه، أرنبا مريضا، كان يجر ساقه الخلفية، ضربه الأب بعصا على عنقه. فقط عليك أن تنجح في التصويب، تطلق النار على صديق عزيز، وتسدي له في مثل هذا الموقف خدمة أخيرة.. أين؟ ماذا؟ أين؟ في أي مكان في جسده ستطلق عليه الرصاص؟ سأل الطفل، في الرأس أم في القلب؟ فالتر شد البدلة الرياضية فوق رأس الأب، وعبر صدره إلى الجزء التحتي وعبر الظهر حتى مؤخرته المحكمة بالحفاضات، أين؟ في الرأس أم في القلب؟ ماذا .. أين؟ هذا السؤال لم يجب عليه الأب أبدا.

ظهر العرق على جبين الابن، وهو يجلس القرفصاء، ويلف الجورب حول قدمي الأب، ويدس ساقيه في بنطال البدلة الرياضية، بعدها ألبسه البنطال ذا اللون الأزرق الفاتح وشده عاليا تحت مقعده وفوق الحفاضات، ومشى بالمشط فوق شعره مرة أخرى. في الرأس أم في القلب؟ هناك طرق على الباب، لم يكن مدير الدار، كانت المرأة العجوز، نظرت إلى الداخل وصاحت: ليختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا. ببغاء في صورة إنسان، لكن بلا أجنحة، هذه المرأة. أفضل صديق يجب عليك قتله بالرصاص في مثل هذا الموقف، هنا، يجب أن تستطيع أن تنظر في عينيه. وضع الأب يديه فوق مسند الكرسي المتحرك، وكانت أوتار اليد

بـــارزة فوق جلـــده المترهل المصفر. لم يعد هنـــاك أي لحم فوق المفصـــل المليء بالعقد. لماذا يا أبي العزيز؟ لم تجنبني عملا مثل هذا؟ في الماضي كنت رجلا قويا، تنكب على العمل وتستطيع أن تضرب. ذات مرة أسقطت رجلا على الأرض عندما قام بالهجوم عليك وكنت في الرابعة والعشـــرين عندئـــذ. وحتى وقت قريب، كنت ما زلت تقلم الأشـــجار بالمقص، بحـــركات قوية وبلا كلل.. والآن؟ مـــاذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ قل شـــيئا يـــا أبي.. أعط أية علامة؟

هل تتذكر أي شـــيء؟ هل ما زلت تتذكر نفسك؟ أنا لا يمكنني أن أفعل شيئا لك، وسوف يأخذونك معهم، ربما يكون هذا شيئا طيبـــا. لماذا لا تنطق بكلمة؟ هل أصابك الخرف؟ أم تتصنعه؟ أم كلاهما؟ ربما لا يكون الوضع في مستشـــفى الأمراض النفسية مختلفـــا عن هنا، ربمـــا يكونون أكثر ودا. نظـــر ڤالتر إلى المرآة خلف حوض الغســـيل، وقارن نفســـه بالأب، شـــيءٌ لافت للنظر، نفس تكوين الرأس، أنت تشـــبه أباك كل يوم أكثر، أيضا الوضع الجسماني، لا، لا، ليس فقط بسبب الصلعة المبتدئة، إنما المظهر الكلي، بشكل عام.

مـــن ناحية كان ڤالتر فخورا، ومن ناحية أخرى قال لنفســـه، كل شـــيء إلّا هذا. رغم أن الأب كان رجلا وســـيما، وكانت لديه حظوظ عالية لدى النســـاء، ومحترما من قبل الرجال، لقد كان أكثر وسامة من الابن نفسه. كان ڤالتر يعتقد، بطريقة أو بأخرى أن الأب كان أكثـــر جـــرأة، أكثـــر رجولة، على الأقـــل في الصور فقط. لم يستطع الابن أبدا أن يصل إلى مستوى الأب، كان الأب ســـيقتل صديقا له في الحرب، دون شك كان سينظر في عينيه،

وسـيضغط على الزناد. لكن يا أبي أنا لا أسـتطيع أن أخنقك، أنا لا يمكـن أن أقتلك بمرفق الدش. ماذا فـي الحقيقة تنتظر منـي؟ واجب الابن؟ هل ينبغي علـيّ أن آخذك معي إلى البيت؟ هل يجب أن أقوم بتنظيف مؤخرتك العجوز المتجعدة المترهلة كل يوم؟ نعم، من الممكن أن تأتي معي إلى مسـكني، فمساحته كبيرة بمـا فيه الكفاية، لكن، ماذا يمكن أن تقول مارا بخصوص ذلك؟ من المحتمل أن تترك الشقة، لكن أنا شخصيا لا يمكنني تحملك على أية حال يا أبي.

هـذه هي الحقيقـة العارية، لقد كنت أتحملـك بصعوبة في الماضي، قربك كان دائما يسلبني حريتي، لكن الآن تقتلني بكآبتك الخرساء، ألا تفهم ذلك؟ أنا لا أسمح لنفسي بخذلانك، إذا كنت فعلا في حاجة إليّ، وأنت أيضا هل كنت سـتفعل نفس الشـيء ولا تخذلني؟ ربما كان من الأفضل لك أن تذهب إلى مستشـفى الأمراض النفسـية، جاهزون هم هناك لمثل حالتك، هناك سوف يتركونك في هدوء، وسـوف يهدئون أعصابـك عندما تغضب، فأنت دائما متقلب المزاج وسـريع الغضب، ربما كان مكانك حقا هناك بالفعل، ربما كان مدير الدار على حق، كل شـيء ضروري سـيكون متوفرا لك، ولن ينقصك شيء، لماذا نثور ضد ما لا مفرّ منه؟

أنا لا أريد عجوزا رضيعا في شقتي، أريد أن أحيا في حرية، أنا لا يمكنني تحمل وجودك يا أبي، هل تفهم ذلك؟ وما رأيك؟ ربما يروق لك الوضع في المستشـفى؟ سوف أزورك بانتظام، يمكنك الاعتماد عليّ في ذلـك، وقد أثبّتُ هذا أيضا حتى الآن. أنت لا يمكنك الشـكوى، لسـاعات طويلة كنت أطلّ معك من النافذة،

أثرثر معك أو أصمت. هناك في مستشــفى الأمراض النفسية، فوق، في مكانك المحبوب زيورخر لأوبرلاند، سيكون لديك منظر خلاب، ربما تنتعش مرة ثانيـــة من جديد، عندما تتناول الأدوية المناســبة. هنا في دار الرعاية ليست لديهم أية فكرة، أما هناك فقد تم تأسيســهم لهذا الغرض. من يدري، ربما تتفتح يوما من جديد مثل وردة. ماذا تنتظر في الحقيقة مني؟ هل يجب أن أقوم بدفع كرســيك المتحرك عبر الســلالم إلى أسفل كي تقفز على الــدرج مثل أرنب؟ أو كعربـــة الأطفال في فيلم المدمرة بوتمكين؟ ســوف تقفز عدة قفزات، هوب هوب، ثم بعدها يسقط الكرسي وتقذف بعيدا، ويصطدم رأسك بأحد سلالم الدرج.

ربما تبقى على قيد الحياة، وتســتلقي مغيبا بفم مفتوح على السرير، عيد ميلاد بعد عيد ميلاد، حتى يصير عمرك مئة عام، بقلبك الســليم.. هل تريد ذلك فعلا؟ هل تنتظره مني؟ هل أركّب لك خليطا من الســموم؟ لكن طريقة إنســانية لا تناسبك، هذا الفرار الناعم، والموت الصامت لا يناســبك، أنا لا يمكنني تخيل ذلك. كنت تقول إن الرجل الحقيقي هو من يمسك بقرنَي الثور، الآن يمكنني أن أثبت أنني صرتُ رجلا حقيقيا.

ڤالتر نفســه أصيب بالدهشــة، حين وضع يــده فجأة على رأس أبيه، عندما رأى كيــف تنهمر دموع الأب على وجنتيه غير الحليقتين جيدا، على شــعيرات الذقن الشيباء، متجهة إلى فمه الصغير ذي الشفاه الرقيقة.

أبــدا لا يتذكر أبدا أنه رأى الأب قبل اليوم باكيا، حتى عندما مات والــده، وقف متحجرا بنوع من الاهتمــام أمام الموت. الآن وفجأة صــارت عيناه دامعتين. الفتى الحقيقــي لا يبكي، الفتى

يجب أن يكون شجاعا، الفتيات الصغيرات هن اللاّتي يبكين.

هل تتذكر عندما قلت لي ذلك: تماسك! لقد عرفت الآن، لماذا يقول الآباء ذلك لأبنائهم، إنهم لا يتحملون رؤية الدموع في عيون الأبناء، أما دموعهم هم، تلك التي يحبسونها وتصعد لأعماقهم، فيعتريهم الخوف من أن يجرفهم تيارها ويغرقوا في فيضان من الدموع.

حمل ڤالتر الأب، رفعه عاليا، شـــيء مدهش، كم هو خفيف! أربعون كيلو جرام علـــى الأكثر! وزن الذبابة. بعدها انحنى وثنى ركبتيــــه، ووضع الأب فوق الكتفين، هكـــذا، كما كان يجلس وهو طفل فوق كتفـــيّ الأب. من هذا الموقع العالي كان ينظر من فوق إلى أســـفل على الجميع، وعندما تحترق الدمية المحشوة ببقايا الخشـــب في هيئـــة رجل الثلج في أعياد الربيـــع في زيوريخ. لم يتعب الأب أبدا، كان في اســـتطاعته حمل طفله لساعات طويلة. صاح الأب وهو يحملني، تماسك، كان ذلك حينما يشعر الصغير بالفزع عند ســـماع الانفجارات. إن هذا شـــيء سخيف، لم يمت أحد حتى الآن بسبب هذه الفرقعات، انتظر حتى ينفجر الرأس، حينئذ سيكون الدويّ هو الأروع.

كان الأب منزعجا، والصغير أحس ذلك من حركات رأس الأب المتشـــنجة: عليك أن تكف عن الحركة، إن هذا ليس مدفعا، ولا يوجد إطلاق للنيران، إنه أحد الطقوس القديمة، بهذه الفرقعات يتم طرد الشـــتاء. ذات مرة وهو فـــوق كتفي الأب، تبول الصغير فـــي البنطال. يـــا لها من فوضى ملعونة، قالهـــا الأب وأنزله من فوق كتفيه، وسحبه إلى أقرب تواليت عمومي في بيلفي بلاتس، وهنـــاك أنزل بنطاله ومســـح عانته مؤقتا بـــورق التواليت المبلل

بالماء، حتـــى إن بقايا الورق ظلت عالقة بهـــا. في المرة القادمة، عليك أن تتماسك وإلا بقينا في البيت، لا تنس أنك صبي.

وفي الخارج انفجر رأس الدمية، مسببة صوت فرقعة رهيبا. لقد كان وكأن كل شيء تم جرفه من فوق سطح الأرض، الأشجار القديمة المحيطة بالمكان، الناس، المباني. عليك يا أبي أن تخفض رأسك، وإلا فلن نتمكن من الخروج من الباب، عليك أن تتماسك. ضغط ڤالتر رأس أبيه إلى أســـفل وأحس بذقنه الخشـــنة على وجهـــه. شـــخصان غريبـــان يمكن رؤيتهمـــا في المرآة المكســـوة بالبخار. أمسكْ عنقي بكلتا يديك، ليس بعنف، أنت تسحب مني الهـــواء، نعم، هكذا، الآن ســـوف يمر الأمر ســـريعا: الجو مهيأ، لا أحد هناك، سوى مساعدات المرضات اللاتي يقمن بالتنظيف، لا أحـــد في الممـــر، إنهم لا يمكنهم منعنا. انتبه، الأمر ســـيصير جادا، يجب علينا بلوغ الدرج، أمسك بقوة!

(ليختنقـــوا فـــي الأسِـــرّة أو يُحرقوا)، صاحـــت العجوز ذات الجمجمـــة الصلعاء، عندمـــا رأت الأب، (يختنقوا في الأسِـــرّة أو يُحرقـــوا). أمـــا الآخـــرون فلم يزعجهم شـــيء، مســـاعدات المرضات كن ينظفن بالمماسح والفوط، وكبار السن من الرجال والنساء، كانوا يجلسون في كراسي المقعَدين، أو كانوا راقدين في أسِـــرّتهم، بين اليقظة والنوم، غير واعين، محدقين في شاشات التلفزيون المهتزة. الآن ســـأدفع بقدمـــي باب الممر، كُنْ في وضع مستقيم ولا تتحركْ، لو تسببت في صعاب فلن ينجح الأمر، هنا على الدرج سيكون الأمر أسرع من المصعد، شيء كوميدي يا أبي، أليـــس كذلك، تقريبا مثل ركوب الخيل، اقفز، اقفز أيها الفارس. عندما يسقط.. عندما يصرخ.. لا تسقط، لا تصرخ، وإلّا فالرحلة

ستنتهي قبل أن تبدأ. هذا شيء ممتع، الآن فقط اقترينا من باب المدخل، في الخارج، كان الليل قد بدأ في الهبوط، دعنا نغادر فورا، ننصرف من هنا.

لا يمكنهم تصور ذلك، لا يمكن لأحد تخيله. (ليختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا)، صاح فالتر ضاحكا لقد جُنّ الأب وحال الابن ليس مختلفا، يبدو أن الجنون شيء متأصل في عائلتنا. تخيل أن الدار احترقت بألسنة النيران، سفينة حربية تنفجر بمقربة من الجبل المظلم، صفير ورعدُ انفجار وحطام، صراخ وأنين، لا نوم بعد اليوم، لا أحلام. والآن إلى أين سنتجه؟ إلى اليسار، أم إلى اليمين؟ سوف تذهب إلى كوخك الريفي المحبوب في زيورخر أوبرلاند، والذي قمت أنت بنفسك ببنائه من الخشب منذ أعوام، هل ما زلت تتذكر؟ عندما قمت بشراء جذوع الشجر المقطوعة الطازجة من حارس الغابة؟ وكنت تأتي كل عطلة سبت وأحد لتعمل في بنائه. في بعض الأحيان كنت أساعدك، أكثر من عامين أمضيت في بناء هذا الكوخ. بعدها صار البيت الخشبي جاهزا، كانت زيارتي الأخيرة مع مارا هناك منذ نصف عام تقريبا.

إن خشب البيت يحتاج طلاء جديدا، لكن مازالت حالة السقف جيدة، مازال هناك بالتأكيد عدد من علب معكرونة رافيولي وكريم الفانيليا. سوف يكون كل شيء على ما يرام. إلى هناك سوف نذهب يا أبي، وهناك سوف نسكن سويا، وسيكون الأمر أجمل، الأب والابن، سوف نريهم يا أبي، أو ماذا يمكن أن يحدث لو قمت بحملك إلى الجبل، وأجلستك على كرسي وبعدها وبكل بساطة تركتك وحدك هناك ومشيت؟ ربما يفتقدونك الآن

بالفعل، وبدؤوا في البحث عنك، ستنادي ممرضة وينادي ممرض، إنهما لم يعودا موجودين، إنه شيء غير ممكن بالفعل! نحن الآن في منأى عن العيون، وأنا بدأت في التعرق والهواء لم يبرد بعد، سوف تكون هناك عاصفة رعدية. ماذا كان يدور في رأسك في الحقيقة عندما أضرمت النار في الغرفة؟ هل كنت تدرك يا أبي خطورة ما فعلت؟ هل ما حدث كان عن طريق الخطأ؟ أم كنت تريد أن تعبر عن شيء ما؟

هل كنت تريد مضايقتهم، أم كنت تريد أن تقتل نفسك، تحرق نفسك حيا؟ إنه ليس رحيلا جميلا أو نوما هادئا أو وفاة مفاجئة سببّها توقف القلب عن الخفقان، وليست كذلك موتا ساكنا في وسط أحبائك. إذن لتملكك الذعر، وكنت سوف تصارع من أجل الهواء، في أفضل الحالات كنت ستختنق. من المحتمل أن النار كانت ستشتعل بملابسك، هل كنت تعرف حجم الألم الذي كان سيلمّ بك؟ الحرق كان في العصور الوسطى وسيلة تعذيب. هل كنت تريد أن تكون بطلا؟ رجلا حقيقيا، بطلا أمام نفسك؟ أم في الحقيقة كان كل شيء مجرد مصادفة غبية، وعملا أحمقَ؟ في وقت ما سوف تجيب عن أسئلتي، أريد أن أرى ماذا يدور في عقلك.

هنا على هذا المقعد سوف أجلسك سريعا، هنا لن يزعجنا أحد. الآن ستصيح الجداجد الحقلية، يا له من مساءٍ صيف رائع!

أقعد فالتر الرجل العجوز بجانبه على المقعد، برهة قصيرة ظلّا هكذا جالسَين، بعدها أخذ فالتر حقيبة ظهره، وقطع بسكين الجيب فتحة في كلا الجانبين، كبيرة بما فيه الكفاية كي

يتمكن الأب من مد ساقيه من خلالها، ثم اختبر أربطة الحقيبة، وجثم على الأرض وألبس الحقيبة في ساقَي الأب، وكأنها سروال قصير، ثم أدخل نفسه في الحمالات ورفع حقيبة الظهر التي بها العجوز عاليا. حسنا، والآن يمكن أن يبدأ المشوار بشكل صحيح، أنا لا أكاد أشعر بك فوق كتفيّ إنك خفيف للغاية، معك الآن يمكنني السير إلى نهاية العالم. أنت لم تعد محتاجا لتطويق رقبتي، أنت لا تستطيع حفظ توازنك بسهولة، يكفي أن تستند بعض الشيء على كتفيّ، الآن لن يعطلنا أحد. على الطريق مع الأب الحي وليس كما كنت تقول لي، مع بقايا رمادك.

تخيل يا أبي العزيز؛ لو كنت سافرت مع بقاياك المتفحمة في جرة الرماد، ملفوفة في كيس بلاستيك من محرقة جثث الموتى بنورد هايم في شارع ڤاينتالر في اتجاه بوخيج بلاتس، كما كنت تطلب مني وقتها. كان الموظف في محرقة الجثث سيقول، التبديل مستحيل، لدينا نظام صارم، بالضبط كما في مستشفيات الولادة، هذا أبوك، ومن الممكن أن يقوم بنزع غطاء قنينة الرماد، وأن يشير بإصبعه إلى داخلها، هذا هو أبوك، ليس هناك أدنى شك في ذلك. ورغم ذلك فهناك أيضا من الأطفال الرُضّع من يتم استبدالهم دون قصد، فالبطاقات الملصقة على أسرّة الرُضّع تُفقد وتضيع. يلوح الآباء والأقارب إلى طفل مستبدل بابتسامة، وإلى قدر مستبدل أيضا. وسيكون الانتهاء من الإجراءات الشكلية سريعا إجراءات دون أخطاء. تسليم روتيني مع كلمات مرفقة معتادة، خالية من أية إحراجات ممكنة، وأية أحاسيس كاذبة، قصيرة وجادة. في البداية، الاستمارة، كي يبدأ كل شيء بشكله الصحيح. سوف أجعل

الاستمارة بين شفتيّ، ليس عندي مكان آخر يا أبي العزيز، فأنا أحتاج كلتا اليدين لحمل جرة الرماد.

كنت أخشى أن أمسكها بيد واحدة فتنزلق مني. قال الموظف، يمكنك أيضا وضعها في وضع أفقي، فهي مغلقة بغطاء محكم. نحن نرسلها بالسكك الحديدية، وبالباخرة، وبالطائرة إلى كل أنحاء العالم، صُنع في سويسرا، حتى الآن وصلت سليمة إلى كل مكان. سليمة.. يا لها من كلمة، فكرت أنا. لكني لم أرغب في إرسال جرة الرماد، كنت أرغب فقط في حملها، وفقا لطلبك الذي طلبته خلال نزهة، يمكن القول في لحظة احتفالية معينة، إنها جميلة في زيورخر أوبرلاند، وذلك ذات صباح يوم من شهر أغسطس، قبل عامين، هل تتذكر؟ تحدثت عندئذ إليّ بشكل مفاجئ محاولا إقناعي.

كان يوما حارا مثل اليوم، والهواء يتحرك بقوة فوق قمم الجبال. على اليمين، خور فيرشين، مع السينتس، بعدها جبال جلا رنز، تابعة لسلسة جبال الألب، إيجر، مونخ، ويونج فراو.. كل بانوراما جبال الألب. وفي أقصى اليمين غربا، سلسلة التلال الناعمة التي تنتهي ببفاتين ستيل، خلفها تأتي سلسلة إلبيس مع إلكونتور المعروف، يمينها جبل الأوتيل مع البرج وهوائي التلفزيون. هذه هي منطقتنا، وطننا.. يمكن أن نسميها كذلك. تلك كانت رغبتك، طلبك، واستخدمت كلمة واجب الابن للتعبير عنها. لا يمكن جعل كل شيء حياديا بمزحة، أو بكلمة ساخرة، كما كان يحب كلانا أن يفعل. كان الأمر بالنسبة لي، وكأن وترا يتمزق داخلي، وكأن سوطا يضرب أعماقي، يضرب الروح المسالمة، كان وكأنه لكمة غادرة في الحجاب الحاجز. لكن هذا كله لم يكن سوى مزحة

ســخيفة، هل تتذكر؟ أنا آمل ألا أموت في الشتاء، قلت ضاحكا، وإلا فإنك سوف تنزلق وتسقط معي، وننجرف سويا إلى المنحدر.

تخيل أني أجبت على ســؤالك، في ثقافات أخرى، يجب على الأبنــاء حمل آبائهم عند الموت إلى أعالي الجبال. كنت قد تركت المحرقة خلفي، وشــعرت بثقل جرة الرمــاد، من خلال الحواف الحــادة لمقابض الكيس البلاســتيك. والآن أمامنــا أمتار قليلة وندلف إلى الغابة، هناك ســوف يكون الجو باردا بعض الشيء. أشــعر بدفء جسدك فوق ظهري، من خلال مادة النظبياون في حقيبة الظهر. ســوف أوضح لك كل شــيء مرة أخرى، كما كنت توضحه لي سوف أشرح لك كل الأشياء، وسوف أمنحها أسماء، سوف يكون خشــب التتوب هو خشب التتوب، وخشب الزان هو خشــب الزان، والكرز البري هو الكرز البري، ســوف أســتطيع أن أفرق بين الأصوات الليلية، ســوف أحدد لك بالاســم صرخة البومة الصغيــرة ونباح الثعالب الغليــظ. النباتات والحيوانات، الأرض والســماء. يمكننا التحدث عن كل شيء، لماذا يصير الليل ليلا والنهار نهارا. تستطيع أن تطرح عليّ أي سؤال.

ســأحاول أن أرد بكل صدق، أشــياء كثيرة لــن أعرفها، في الحقيقــة ما زلــت أعتمد دائما عليك. لكن الآن ســوف أنصت لك، عندما تشرح لي أمرا. لن أشعر بالملل، ولن أسخر منك ولن أعتبر نفسي أيضا أذكى أو أكثر معرفة منك. وعند المشي يمكننا قــول ما لا يمكن قوله بيننا عند الاهتزاز، ربما حتى بالصوت أو بالضجيج. فقــط يجب علينا أن نصغي جيــدا. تقريبا لم نجد أبدا المساحة الصحيحة لحديث مثمر بيننا، فإما أن يكون عراكا صاخبــا وإمــا أن يتوه كل منا فــي مونولوج داخلــي. غالبا كان

الأمر يدور حول انتصار أو هزيمة. هل كنت في الحقيقة إنسانا متواضعا أم مجرد ثرثار قلق؟

لقد كنت تقوم بجولات طويلة في المدينة، كان معروفا عنك ذلك، كنت تجعل نفسك دائما في حالة حركة كي لا تتفجر. أحيانا كنت أراك من بعيد وأنا في سيارتي تمشي بانحناءة لكن بخطوات واسعة ومنتظمة. من حين لآخر كنت تأكل تفاحة، التفاح صحي وسهل الهضم وينظف الأسنان، هكذا كنت تقول. في الماضي كنت تتنزه مع كلبك الدوبرمان الذي قمت بتدريبه بنفسك، وغالبا ما كنت تقرأ الجريدة على الطريق. أنا أقصد بشكل جاد، هل كنت تنادي في كل نزهة: انثروا رمادي هنا، بالضبط هنا فوق هذا التل، وتشير لي بحركة من ذراعك الممتدة إلى الأسفل. بالضبط هنا! كان هذا المكان يبعد عدة مئات من الأمتار من كوخنا الريفي، منخفضا بعض الشيء، عندما يميل الانحدار إلى أسفل. المنظر الطبيعي من هنا رائع وخلاب، لقد اخترت مكانا صغيرا جميلا بالفعل. كنت أنظر إليك من الجانب، مظهرك الجانبي كان مازال حادا، أنفٌ ذكوري. كانت أمك تقول ذلك دائما. رياحٌ صباحية دافئة هبت عبر التلال، يوم صيفي رائع، الأشجار تتمايل برفق، كانت وكأنها تلّوح لنا.

وفجأة صار وجهك قريبا مني للغاية، كان علي أن ابتعد برأسي، ناظرا إلى الحقول، عبر الغابات المختلطة وإلى القمم في الجهة الأخرى والتلال. نعم، لقد حملتني في الماضي إلى هذه الأماكن، هل يطلب إنسان من ابنه طلبا مثل هذا؟ هل تصورت أن هذا طلب واقعي؟ أم أنه فقط كان هتافا وجدانيا؟ على كل حال كان هذا من سماتِ شخصيتك: بين المفرح والمضحك، بين

الغريب والحزيـــن، أم كان الأمر يبدو فعلا على هذا النحو؟ هل هي أمنية طبيعيـــة لأب عجوز؟ في الوقت الراهن؟ لماذا لا تكون مثل كل الآخرين، ويتم دفنك في مقبرة؟ لقد كنتُ أســـمع دائما، انثروا رمادي فـــوق البحر، أو انثروا رمادي في حديقتي، أما أن تنثروا رمادي في بارادا بلاتس، فلم يطلب أحد هذا الطلب. ربما كان هذا دليل ثقة خاصا بالابن، ورمز تعلق حميم به.

هناك فوق التل ســـوف أخبره بذلك، كنت تفكر طوال الوقت في هذا الشأن. وعند المغادرة في ذلك الحين كنت تفكر في هذا. أم ربما جاء الأمـــر بطريقة عفوية، أم أن العاطفة تغلبت عليك؟ مناظـــر الطبيعة، الضوء، الابن، المـــزاج، ظلت كلماتك معلقة في الهواء كفقاعة كلامية مازلت إلى اليوم أراها أمامي، هذه الكتابة لا أســـتطيع إزالتها. بعدها مشينا برهة من الزمن صامتين جنبا إلـــى جنب. هل تتذكـــر؟ أرجوك، مرة ثانية لا تتشـــبث بي بهذه الطريقـــة، إنك تـــكاد تخنقني، هل ما زلت تتذكر تلك التمشـــية يا أبي؟ كنت أصغي إلى أنفاسك، كانت منتظمة بشكل طيب، كل شيء على ما يرام. فلم تلهث ولم يكن لديك صعوبة في التنفس. لكن فجأة، وكأنني ســـمعت خفقات قلبـــك تنبض عاليا، لم تكن هذه في حقيقة الأمر ســـوى دقات مشفر السور الكهربي، والتي دقت عندما انسللنا عبر الأسلاك.

ذات مرة لمســـت السور المعدني وقلت إنه يؤلم، لكنه أمر يمكن تحملـــه، جرّب أنت أيضا، على الأقـــل بعصا، فإنها تقلل من قوة الصعـــق الكهربي بعض الشـــيء. وفعلت أنا ذلـــك، لكن الصعقة كانت قوية، وأحسست أنك خنتني. تماسك، فأنت صبي، احترس الأبقار! فقد حدث أن دهســـت المارة المســـالمين، لـــو اقتربوا من

البقرة قائدة القطيع، ربما يكونون ثيرانا. ونظرت أنا إلى ملامح النوع كي أميز جنسهم: كل شيء على ما يرام، لا شيء غير ضروع ثقيلة منتفخة. نعم، ماذا يحدث لو مشيت بكيس البلاستيك الذي تتدلى به الجرة التي بها رمادك، متجها من المحرقة، عبر فينتالر شتراسه نحو بوخيج بلاتس؟ كنت أتخيل ذلك مرارا، عندما كان طلبك يلمع مثل يافطة مكتوبة بالضوء، عند النوم أو في أي وقت آخر. لقد كانت تظهر أمام ناظري فجأة.

يمكن الإحساس به خلال جلد الحذاء، طريا. هنا وهناك تترك إطارات السيارات آثارا سوداء عند المنحنيات عندما يسيل القطران تحت وهج الشمس. كنتُ غالبا أود لو مررت بجانب محطة وقود، وهناك كانت ستفوح رائحة البنزين، ورجل يرتدي بنطال جينز أزرق و«تي شيرت» مطبوعا بالألوان، كان ربما سيملأ خزان شاحنته التويوتا الصغيرة بالوقود. سيكون وقت الظهيرة، والحرارة استوائية، أكثر من ثلاثين درجة مئوية وغازات العادم تهتز بجانب محطات تعبئة الوقود. وسيكون الإسفلت تحت نعليّ متوهجا بالسخونة، هذا في ذروة الصيف وأنا طفل، في ذلك الوقت كان الإسفلت أقل مقاومة للحرارة من اليوم. وسأكون على الطريق حاملا كيس البلاستيك، متنزها في المدينة برماد أبيه، دائما في حركة، حتى لا تنفجر روحه، دائما على سفر حتى لا يمرض. لكن لن يكون في حوزتي تفاح، سيكون معي آيس كريم، والذي سيذوب أسرع مما أتمكن من أكله، والبسكويت الرقيق المحيط به سيصير رطبا، طريا كما العلكة.

كان الأصدقاء يقولون دائما، إنك تشبه أباك؛ نفس الخطوة، نفس ملامح الوجه، مع هذا كنت أود لو أصير مختلفا، رغم

ذلك كنتُ أيضا فخورا: رجل حقيقي هكذا أيضا. اليوم سوف أنثر رمادك، رغم سخونة الجو، سوف أصعد إلى التل، وأقوم بتفريغ جرة الرماد. أخيرا سوف تتناثر في كل الرياح، بعيدا، بعيدا، سحابة خفيفة، مثل سرب من البعوض. لماذا لا تريد أن يتم دفنك بشكل عادي؟ لماذا ترسل ابنك ذا الخمسين عاما، بجرة رمادك في رحلة غريبة كهذه، لماذا تطلب منه شيئا مثل هذا؟ لا تجعلوا من الأمر الصغير شيئا كبيرا، انثروا رمادي في كل الرياح!

تعتقد أنك تتصرف بصورة متواضعة، لكن في الحقيقة ما الأمر إلا مسرح كبير. ربما تمتلئ عيناي بالدموع فجأة في فينتالر شتراسه، أو ينكسر بسكويت الآيس كريم الرقيق، ويسقط على الأرض، في الماضي كنا نأخذ عطلة عندما يكون الطقس حارا مثل اليوم. لو أسرعت الخطى أكثر من ذلك لاهتز بقوة كيس البلاستيك في يدي من خلال الحركة الإيقاعية؟ وتصطدم جرة الرماد بفخذي أو حتى بركبتي ويكون عليّ أن أثني ذراعي بعض الشيء، وربما يحدث لي شد عضلي وأن أقوم بتغيير الكيس إلى اليد الأخرى، أو أسير على مهل متنزها إلى قلبِ المدينة؟ لكن عن أي شيء أتحدث الآن؟ إننا نسير معا على الطريق، هربا إلى زيورخر أوبرلاند، إلى بيت عطلة نهاية الأسبوع. حتى وقت قريب، ربما قبل أسابيع قليلة، كنت أعتقد أنني أفعل كل شيء أفضل منك، أفضل بكثير، ربما أكون تطورا طبيعيا لك أو شكلا متقدما. كنت أعتقد أنه في الواقع ليس لديك فكرة عن الحياة، بالذات عن النساء، زواجك كان كارثة. الأمر بالنسبةِ لي كان شيئا مختلفا، على سبيلِ المثال مع مارا.

هل تتذكــر؟ لقد قامت بزيارتك مرتين فـــي دارِ الرعاية، كل منا كان يفهم الآخر بكلِ معنى الكلمة وكأننا نتنفس برئة واحدة، ليس فقط أثناء فترة ولهنا الأولى، لكن أيضا في حياتِنا اليومية، كانــت أيادينا دائما تبحث عن بعضها، كنا نلمس بعضنا، كان كلٌّ منا يحب الآخر كثيرا وكنا في احتياج إلى ذلك. وباســتمرار كنا راضين، وكان رضانا يقترب من السعادة، هل تفهمني؟ متى يبدأ التغيّر، هل تستطيع أن تقول لي ذلك؟ إنه ليس بالشيء المفاجئ. الدمار يبــدأ خلف ظهرك، يزحف على نحو غــادر، في البداية بشــكل خفــي وغير جليّ، لكــن صدعا يلوح فجــأة، ومن خلال الكلام، تحاول أن ترأبه، لكنه يتســع، وفجأة يحدث شرخ وتصير شــظايا الزجاج قريبة. عندما كنت تعود مــن العمل إلى البيت، كنت تريد أن نتركك في هدوء، قبل الانفصال عن زوجتك، أمي، كنت تحبس نفسك في كلِ مناسبة في غرفتك، يا إلهي، كم كنت أكرهك لهذا السبب، لقد كنت أرى أن هذا أمر مثير للشفقة.

عنــادك كان يجعلني غاضبــا، وحزينا، وأيضــا كان يجعلني خائفا، ربما كنت في ذلك الوقت يائســا، شــيء في داخلك كان مقتــولا، وأنــا لم أســتطع إدراك ذلك، من كان علــى حق؟ كان الأمر يدور دائما حول هذا الســؤال. في الحقيقة، لم يكن سؤالا ضروريــا. زوجتك كانــت ترى الأمور بعيون أخــرى، في البداية كنتما تحبان بعضكمــا، بعدها بذلتما جهدا كبيرا، دون مردود.. أليس هذا شــيئا فظيعا؟ هل هذا شــيء عادي؟ مازال الطقس حارا، لكن ريحا تهب هناك، ســوف تحــدث عاصفة رعدية، أنا علــى يقين من ذلك. أبي، هــل ترى كيف تتمايل الأشــجار هنا وهنــاك، وكيف تتأرجح جذوع الأشــجار الغامقــة وكأنها ثملة؟

هل تسمع ماكينات الحصاد؟ على الفلاحين الآن أن يسرعوا، لو أرادوا حصد المحصول قبل نزول المطر.

نعم، في البداية يحدث تصدع، وخلال الشكوى الدائمة يصبح شرخا. فقط ودائما ليس هناك غير شيء واحد في رأسك؛ الجنس أو الطعام. جاء هذا الهجوم فجأة من مارا أثناء تناول الإفطار صباح اليوم. شعرت بالحرج، أكثر من أي وقت مضى، أحسست أنها جرحتني. لقد تعودت دائما على سماع هذا اللوم من النساء، خلال عمري الذي يبلغ أكثر من خمسين سنة، وتعلمت كيف أتغلب عليه. في منطقة أوبرزيه عند لاخن بدأ البرق بالفعل، الآن تركنا الغابة الصغيرة خلفنا. هل ترى كشافات النور لماكينات الحصاد هناك على الحقول تحتنا؟ عليكم بزيادة السرعة، حطموا أرقامكم القياسية، يجب أن يتم حصاد المحصول، وإلا فسوف يصيبه العفن في الحقول، وسوف يصيب الفطر السنابل. إن لم تقطع قاطعات الماكينات المحصول بشكل صحيح فسوف تتدخل شركات التأمين، عليكم بزيادة السرعة!

مرارا أصل إلى نفس النقطة يا أبي العزيز، والتي فيها تنهار أرض العلاقة فجأة. ليس هذا بالشيء الجميل، ولا يمكن أن تكون النساء وحدهن هن السبب، بالتأكيد أنا أيضا. خبرتي وحدها تعجز عن مساعدتي، أنا أيضا صرتُ أكثر مقاومة في هذه الأمور، صرتُ محصنا، محصنا ضد نفسي. كيف كان بإمكانكما حلّ هذه المعضلة، قبل ثلاثين أو ستين سنة يا أبي العزيز؟ دائما ما تأتي هذه النقطة والتي يتحول بها كل شيء إلى وضع منحدر مهدد، والتي يصبح فيها الصدع شرخا. أيضا الإثارة الجنسية لا يمكن بالشامبانيا إنقاذها، تنزلق الكؤوس

ولا يمكن عمل شيء، والآن أصبح كل شيء مسكوبا. كل التعبيرات الطويلـــة، والمصالحات وهذه الخلافات المتجــددة. أيضا صباح اليـــوم عندما قالت لي مارا هذا، حتى الآن كنت أعتقد أن الحب يعنـــي لها مثل مـــا يعني لي، على الأقل نفـــس الأهمية، ثم يأتي مـــا قالته لي عند تناول الإفطار بلهجـــة قاطعة، أنا أحتاج عزاء الحب كما يحتاج آخرون عزاء الدين.

وعلى نحو مفاجئ نظرت إليها بعيون أخرى تماما، إنها ليست رائعة الجمال. عمرها لا يمكن إخفاؤه، بالذات في الصباح، تبدو خطوط قاسية حول فمها. وعلى حينٍ غرة ينطفئ البريق ويزول السحر، وتسوء العلاقة، وتصبح النظرة غاضبة. هل تعرف هذا يا أبي العزيز؟ الآن، فهمت ذلك يا أبي وتوقفت عن التشبث بي، أنت تجلس بحرية فوق ظهري، هذا شـــيء طيب، بهذا الشـــكل يمكننا السير لساعات طويلة. دعني أكمل الحكاية:

هل تريدين مزيدا من القهوة؟ ســـألتها بصورة رسمية، وحتى يصبح الجوّ محايدا، ومن أجل الابتعاد عن رائحة العلاقة النتنة وقفت وقمت بعمل ثقب بالســـكين في مســـرب حوض الغســـيل بالمطبخ، والتي كانت بقايا أوراق الخسّ والمعكرونة عالقة به.

إنني في الواقع إنسان سريع الغضب، مثلك يا أبي العزيز. من الأفضل لي لو كنت هويت بيدي فوق الطاولة وصحت: انصرفي إذن، أنـــا لا أريـــد أن أرى وجهكِ بعد اليوم. والآن صار مســـرب حوض الغســـيل بالمطبخ نظيفا، وبصوت شفطة واحدة أصبحت المياه تجري ثانية بســـرعة. قالت مارا أنت ستكسر السكين، في ذلك الوقت كنتُ أريد أن أســـألها إذا كانت تريد أن تمارس معي الحب. لكني الآن ألقيت بالسكين على الأرض بكلِ قوة وصرخت:

لــو تفوهت بجملة واحدة بعد الآن فســوف أنقــض عليكِ. لقد كان هذا شــيئا غير طبيعي. برمت مكبس ماكينة القهوة وكأنني أغلقت مصراعا لمدفع. في الحقيقة خسارة، سمعت روحي تقول فجأة، بينما سالت القهوة متقطرة في الفنجان، ماذا تعني بكلمة خسارة، سألت مارا. أوه! قلت أنا، لا أقصد شيئا، وأوقفت عمل ماكينة القهوة. في الحقيقة خســارة أننا لم نعد نحب بعضنا كما في الماضي.

عندما كنت أريد أن أقترب منها، كانت لا تتقبل هذا الاقتراب، وكانت تعبر عن هذا إما عن طريق الإشارات وإما بالكلمات. كان يحس نفسه دائما في دور المتوسل، هل تعرف هذا يا أبي العزيز؟ بطريقة أو بأخرى لابد أن الذنب ذنبي. مرة ثانية يلمع البرق من بعيد، أعتقد أنه الوميض فقط، الصاعقة الرعدية الحقيقية لم تبدأ بعد.

اســتمر ڤالتر في الســير حاملا أبيه علــى ظهره ورأس الأب مستند على كتفيه، استمر في السير في ممر عبر الحقول صاعدا في اتجاه زيورخر أوبرلاند على البحيرة. ومازال يتحدث إلى الأب، مكمــلا الحكي، كيف كان الأمر يبدو، لو أنه حقق رغبته الأخيرة: ربما صعدت إلى الترام، ووضعت جرة الرماد بجانبي على الأرض، ولكني أحسســت أن تصرفي هذا غير لائــق، ربما وضعتها على المقعــد بجانبي، دون أن يلحظ أحــد، لكنني في النهاية قررت أن أضعها فوق ركبتيّ وقبضت عليها بكلتا يدي. تيار هواء خفيف كان سيجفف العرق على جبين المسافرين المتقاعدين.

في المقعد الأمامي كانت ستحاول أُم الإجابة على أسئلة طفلها بصبر. وأراد بعدها شاب أن يصعد إلى الترام حاملا جهاز راديو

تحت ذراعه، وللحظة بقي واقفا على سلم الترام دون أن يصعد، وأدار صوت الموسيقى عاليا، لعن البنوك بصوت عال، وشتم بابا الفاتيـكان، وفي النهاية صعد إلى التـرام، وأكمل لعناته. صرخ، وأدار الصـوت بدرجة أكبر، نظر المتقاعدون بخجل إلى الأرض، أحدهم أراد بشجاعة أن يتجه إلى هذا المزعج، لكن زوجته شدته من الأكمام.

بدأ الطفل في البكاء، جلس الشـاب واسـتمر في صراخه وأخـرج ما فـي داخله من خطب مليئـة بالكراهية، الكل نظر بسـخط، ربما كان الشـاب ثملا، شـيء ما ليس على ما يرام معه. قلت في نفسي، فقط لا تنظر إلى هناك وإلا وقف واتجه ناحيتـي. إن التقاء نظرات العيون يجذب مثـل هذه النماذج، إنهم يشعرون أن أحدا يتحداهم، في المحطة الثانية صعد اثنان من الهنود الحمر البيرونيين بعباءتيهما الملونتين، من موسيقيي الشـوارع، كانا يريدان القيام بأداء أغنيـة، لكنهما لم يحاولا، بسـبب الضجيج الصاخب، لصوت الراديو، حتى مداعبة أوتار الجيتـار. أدارا وجهيهمـا ثانيـة ناحية الباب كـي يتمكنا من النـزول في المحطة القادمة، لكن الشـاب الذي يحمل الراديو اكتشف وجودهما وأمطرهما بوابل من الشتائم. آمل ألا يفهما اللهجة، فالهنود الحمر في الأسـاس أناس مسـالمون، لا يمكن لأحد اسـتفزازهم بسهولة، لكن المتقاعد العجوز الذي أراد أن يتدخل من قبل، استطاع الآن أن ينتزع نفسه من زوجته، ووقف أمام الشاب الغاضب وطلب منه بلهجة حادة أن يخفض صوت الراديو العالي وأن يتوقف عن شـتائمه. فكرت في نفسي، أنا لا أستطع حتى التدخل.

بجرة الرماد التي بها رماد أبي فوق رُكبتي، عاجز أنا تماما.. في سخونة المعركة يمكنني في الواقع أن أُسيء استعمالها كسلاح بأن أهز كيس البلاستيك في الهواء وكأنه حجر للرمي. شخص ما يجب أن يساعد هذا العجوز الشجاع، نعم إنه كان يمكن أن يكون أبي، إنه شخصية مشابهة وأنا سأمسك جرة الرماد بيديّ بقوة، وهذا السوقي، ربما السكران أو المختل عقليا سيقف فجأة ويصفع بكف يده العجوز المتقاعد على وجهه. أسمع صوت صرخة تأتي من فم، والتي غطت على صوت مكبر الراديو، لم تكن هذه إلا أغنية من موسيقى الراب، كان موقعها في سباق الأغاني على القمة. لكن الآن يجب أن أساعده، نبضات قلبي دقت فجأة بعنف، دفعة أدرينالين. لكن في نفس اللحظة رد المتقاعد الضربة، لم نكد نراها، قبضة يده اتجهت بسرعة إلى الأمام، بالضبط في المكان الصحيح، وقع الشاب وسقط في مقعده إلى الخلف، انحنى ولهث باحثا عن الهواء، أبطل المتقاعد الراديو وقال: هكذا! أكمل الطفل صراخه، وبدأ الهنديان في مداعبة أوتار الجيتار، وقاما بغناء أغنية تحفظها الأذن عند سماعها (جوانتاناميرا) وأنا قمت بتخفيف قبضة أصابعي التي أحكمتها حول جرة الرماد. مسحت زوجة المتقاعد جبين زوجها، والذي عاد ثانية للجلوس بجانبها، بمنديل منعش.

ومررنا بالترام على نصب ألفريد أيشر التذكاري في اتجاه هاوبت بانهوف، الشاب السوقي السكير أو المختل عقليا، تمكن من الوقوف مرة أخرى، أخذ الراديو وقام بتعلية الصوت لأعلى درجة وذلك قبل نزوله مباشرة، وكأنه يعلن احتجاجه الأخير. صوت الآلات الموسيقية العميق يدق بقوة، وصوت الراب يحدث

صفيرا وخشخشة وضجة عالية وطرقا بشدة، وصوت الراديو الذي كان يشبه الصراخ، كان مسموعا حتى أثناء انطلاق الترام. هل لك أن تتخيل، في أي موقف كان من الممكن أن تضعني فيه بطلبك هذا يا أبي؟ كان الشاب قد نزل من الترام، وكذلك المرأة مع الطفل كانا قد تركا الترام بسرعة.

الآن المتقاعدون وحدهم كانوا ما زالوا هم الجالسين، المسافرون الذين كاد الشاب أن يفسد يومهم: هذا هو الصحيح. يجب على المرء أن يدافع عن نفسه وألا يتسامح في مثل هذه المواقف! فجأة انتابني إحساس، لكأنهم ينظرون ناحيتي، كأنهم يقصدونني، بالتأكيد فكروا في ذلك، إنه هو الأصغر سنا هنا، كان عليه أن يظهر بعض الشجاعة. لماذا ينظرون إليّ هكذا؟ ربما يعتقدون فجأة أنني مشبوه، ماذا يحمل هذا الشخص فوق ركبتيه؟ بالتأكيد هو عاطل عن العمل، ماذا يفعل في الترام قبل وقت الغذاء؟ كلا، ليس هناك شيء خطأ، كل شيء على ما يرام، أنا لم أقم بسرقة شيء. في الحقيقة أنا لم أسرق أبدا في حياتي، انظروا هنا، إنها ليست جثة طفل، إنها جرة رماد أبي، وأنا ابنه الشرعي، انظروا على هذه الاستمارة يوجد اسمه، تاريخ ميلاده، ويوم وفاته.

وها هي بطاقة هويتي، أنا أحمل نفس اسم العائلة، حتى إن اسمي الأول هو نفس اسم أبي، إنها أيضا ليست قنبلة، وكل شيء على ما يرام. كنت أخشى فجأة أن يقف الرجل الشجاع مرة أخرى ويتجه نحوي، وتمنعه مرة أخرى زوجته، أم أنني تخيلت كل هذا فقط؟ كلا، إنهم ينظرون نحوي كلهم، إنها نظرات المسافرين التقليدية بوجوههم المتشابهة، إنها تعبيرات وجوه المتقاعدين

الراضية، إن ملابسي نظيفة، وسحّاب سروالي مغلق، أنا في الواقع لست أنيقا بالضرورة، ولكن تحت أي ظرف من الظروف لست متشردا، هكذا يسير في الشارع اليوم رجل في الخمسين من عمره في محيط معارفه. الشعر خفيف بعض الشيء، لكن لا يمكنني تغيير ذلك، لقد غسلت شعري في الصباح، ها هو، انظروا، إنه ليس دهنيا على الإطلاق، فهو يستقر خفيفا فوق المفرق رغم سخونة الجو، الآن كادت جرّة الرماد أن تنزلق من فوق ركبتي.

لماذا تحملقون فيّ بهذا الشكل، كان بودي لو أصيح عاليا. وكان الكل سينظر نحوي، هذه ليست قنبلة، وبالفعل كنت سأقوم بإخراج جرة الرماد من الكيس البلاستيك، والناس كانت ستميل إلى الجانب متفادية، وكانوا سيغطون وجوههم بأيديهم، بعضهم كان سينبطح أرضا كردة فعل، هذه ليست قنبلة، إنها فقط الجرة التي تحوي رماد أبي، أيها المغفلون! هل رأيت يا أبي في أي موقف كان من الممكن أن تضعني فيه، برغبتك الكريهة، وطلبك السخيف هذا من ابنك! ليست هناك نسمة هواء، يا له من اختناق في الجو، سيصير الطقس أفضل لو هبت عاصفة رعدية. درجة الصفر على ارتفاع 4000 متر، حتى على قمة جبل يونج فراويوخ بدأت الثلوج في الذوبان، وعلى قمة إيجر نورد ڤاند بدأ الماء يقطر من كتل الثلج المدلاة، إنها تقطر على أعناق متسلقي الجبال.

يا أبي العزيز لن يصبح من السهل أن تخرج من هذا الموقف، ببساطة أنت تلعب قليلا بالنار، وببساطة تحترق وتموت. لا يستوي الأمر هكذا، ماذا تعتقد في الحقيقة؟ أنا أريد استجوابك بصورة

صحيحة مرة أخرى، أنا الآن الآمر الناهي بشأنك، يمكنني انتزاع الحقيقة من أعماقـــك، وأن أقيد حركتك، ولن تتمكن من الفرار مني أو الهرب بعيدا، الآن أنت تحت إمرتي. أنا أستطيع أن أبدأ فـــي الركض، وأن أجري معك، حتى ينتابك الخوف والفزع وأنت فوقي، حتى تتأرجح هنا وهناك، ويندفع رأســـك مجيئا وذهابا، حتى تتبول على نفســـك في الســـروال، في الحفاضات! أو ربما تجد أن هذا شيء مسلّ؟ هل تستمتع بالركض، ما رأيك، إلى أين ســـتقودنا هذه الرحلة؟ هل تريـــد أن تنزل ثانية من فوق ظهري، لقد فات الأوان. خطوة خطوة نقترب من الوصول. حتى في هذه الليلة ســـوف نصل إلى الكوخ الأثير لديك، عندما تدور ماكينات الحصـــاد دورتها الأخيرة، وعندما تســـقط قطرات المطر الأولى الثقيلة من ســـماء الليل، عندها نكـــون بالفعل قد وصلنا، أليس هذا حقيقيا، أكان من الممكن أن يحدث هذا، لو كنت أحمل جرّة الرماد في الترام؟ كان المتقاعدون المسافرون سيتركون مقاعدهم، إنهم مازالوا مفعمين بالحيوية، كانوا سينظرون نحوي باستغراب، أما جرة الرماد فكنت ســـأدخلها ثانية في الكيس البلاســـتيك، وكانت ستستقر مرة أخرى فوق ركبتيّ المضمومتين، كل هذا كان مجرد تخيل فقط، إنهم لن ينزلوا من الترام بســـببي، لكن لأنهم وصلوا إلى نهاية رحلتهم، أو أرادوا تغيير وســـيلة المواصلات إلى تـــرام الضواحي. كان ينبغي عليّ أن أمشـــي هذه المســـافة على الأقدام رغم ســـخونة الجو، في أي وســـيلة مواصلات عمومية، يعتبر أي فرد شـــخصا مجهولا، الـــكل يحملق فيك، وتصبح نهبا لخيال كل رجـــل وامرأة، هذا الخيال لا يمكـــن مراقبته، عندئذ تصبـــح بلا حماية وتحت رحمة الآخرين، لكن الآن صرت وحيدا

وأستمتع برحلتي، برد جسمي قليلا من تيار هواء خفيف، وألقيت نظــرة وأنا في التــرام على المقاعد الزوجيــة المتراصة الفارغة أمامي، الأعمدة المصنوعة من الكروم، للمسافرين الواقفين تشع برودة مريحة وصرامة.

كنت على وشــك أن أرتكب أفعالا حمقاء، عندما كانت عربة الترام تلفّ في المنحنى بســهولة ويحتكّ معــدن عجلات الترام بمعــدن القضبان محدثــا صريرا. أبي، هل يمكــن أن أكون قد صــرت مجنونا، وحيدا في الترام، فــي الطريق مع رمادك، في الطريق باتجاه تيفين برونن، نهاية الخط؟... مات فجأة، ســوف يقال وفاة قلبية، ما يســمى الموت في لحظة، في الواقع هو موتٌ جميل في هذا العمر، لم يســقط، ظل ســليما لآخر لحظة، لقد كان مغامرا، إنها حقا وفاة جميلة، مرة أخرى يلمع البرق، شــيء مدهش رؤية الحقول وهــي تُضاء فجأة، ربما يهطل مطر طويل بعد العاصفة الرعدية. بعد هذه الفترة الســاخنة يجب أن يبرد الطقــس ولو مرة، هــل مازلت يا أبي تتذكر، كــم كنت في حالة معنوية عالية في ذلك الوقت؟ كم كنت ســعيدا، عندما قمنا معا بالتنــزه في أحد أيام الصيف فــي زيورخر أوبرلاند، كنت تحس بسعادة جســمانية، كنت تدفعني بكتفيك في بعض الأحيان، عن غير قصد، أثناء المشــي، كنت أحس بقميصــك الذي تفوح منه رائحة العرق، وبذراعيك وكتفيــك القويتين، اللتين كانتا مليئتين بالعضلات. نعم، لقد كنت أحس دائما أنك قريب مني، كعملاق، وأحيانا كنــت بعيدا جدا، كأحد أبطال أفلام رعاة البقر، والذي يختفــي في الأفق. كانت العلاقة الحقيقية بيننا دائما مصادفة. ربما للحظات، كما خلال تلك النزهة، تصير هذه السعادة القصيرة

الملعونـــة بين الأب والابن نوعا من أنـــواع الاتصال الكهربي. لكن أنا أريد أن أكمل نســـج قصتي، حكايتي، وماذا كانت ستصير مع جرة الرماد في الترام.

دخل الترام في الـــدورة الأخيرة بمحطة تيفين برونن محدثا صريرا، وددت لو بقيت جالســـا، قلت في نفسي، وأظل مسافرا بالترام عبر المدينة من نهايـــة محطة إلى أخرى إلى الأبد. أقرأ كل لوحـــات الإعلانات، التعليمات، والملاحظات في عربة الترام، وأحفظهـــا عن ظهر قلب، أنظر من النافذة، وربما أفكر في أخي وفي الخطاب الطويل الذي قمت أنا بكتابته له منذ عشرين عاما. إنه لا يســـتطيع أن يكون معنا الآن، كي يلبّي رغبة أبيه الأخيرة، فإعاقته لا تســـمح له بذلك، والخطوات القليلـــة التي يخطوها بمساعدة آخرين لا تكفي. أنا لا أستطيع أن أدفع كرسيه المتحرك في مكان وعر مثل هذا وشـــديد الانحدار، فالحصى في الطريق سوف يعوق سير العجلات الأمامية الصغيرة، وأكون مضطرا إلى حمله، وهو الذي ســـيصبح عمره أربعين عاما. وكما كنت أحمله في الماضي عند الذهاب إلى المدرســـة، لقد كنت مضطرا لتركه عند الأم والتي هي الأخرى غير قادرة على المشـــي، وتجلس في كرسي متحرك أيضا منذ سنوات طويلة.

نعم، أخي العزيز: الشلل الدماغي، كلمة كان لم يكن مسموحا باســـتخدامها خارج أســـرتنا. نعم، كانت الناس تعتقد أن حجم رأســـه غير طبيعي، إنكم لا تفهمون شيئا، أنا أعرف الناس غير المثقفين، كانت الأم تصيح، إنه شـــلل حدث أثناء الولادة، ســـبعة أشـــهر تحملتِه يا أمي في الرحم، وذات يـــوم أحد تمت ولادته. هل يبقى مولود ذو ســـبعة أشهر على قيد الحياة؟ محتمل ولكن

ليس مؤكدا، قال الأب. كنا خائفين عندما لمحت نور الدنيا، كنتُ حذرا، ولذلك لم أعتبرك في البداية موجودا، لأنك من الممكن أن تختفي مرة أخرى، فقط لا لإقامة علاقة معه، في جهاز التحضين، كان شكلك يبدو كأحد أطفال الهنود الحمر الرُضع، كان لونك أحمر كسرطان البحر، فقط مغطى بمئزر أبيض. رأسك النابض كان هو المقياس لقدرتك على البقاء حيا، في الواقع كنت ممنوعا من زيارتك في مستشفى الأطفال، ولكن تم السماح لي بالزيارة كحالة استثنائية. من يدري، لقد كان من الواجب أيضا أن يرى يوما أخاه الأصغر.

إن مرض اليرقان غالبا ما يصيب حديثي الولادة، علاوة على ذلك فإن هذا لا يعني شيئا، إن هذا لا يعني شيئا، كنت أكررها لنفسي دائما. فقط لا تدعْ مشاعرك تجاهه تَتَمُّ، إنه من الممكن أن يختفي في أي وقت مرة أخرى. ويأتي هذا الرأس الغريب الذي ولدتَ به، كالمنطاد، هكذا أطلقت عليه الممرضة، هل سيبقى على هذا الحال، أخا بمثل مؤخرة الرأس هذه، لا أريده على أي حال. لا أحد في فصلنا المدرسي لديه أخ غريب بهذا الشكل. لقد كان من الأفضل، لو كان قد مات في الحال. للأسف، قال في نفسه: لقد مات في سلام، لم يكن بالمرة إنسانا سليما. كلام فارغ، قالت الممرضة، سيعود الرأس طبيعيا بعد فترة من الوقت، هذا شيء عادي بالنسبة لحديثي الوّلادة.

كان من الممكن أن يكون موتك أفضل لي؛ شيئا مؤكدا إلى حد ما، من كان يستطيع أن يتنبأ بما سترتكبه من حماقات! كان من المحتمل أن يتقبل الوالدان فكرة موتك، فقط ستكون واقعة أليمة، قلت في نفسي آنذاك. وأوصد الأبواب في الترام، وأبقى

جالســا فيه، سأســافر من نهاية محطة إلى نهاية محطة، دائما نفس المسافة، مثلك يا أخي العزيز في كرسيك المتحرك في بيت والديك.. من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، من غرفة الحمام إلى غرفة النوم، مسار حياة مرسومٌ لك بالضبط، محدودٌ بسبب إعاقتك، بســبب خوف وقلق الوالدين، وبسببك أنت نفسك وكل الأســرة. ليبقَ الوضع كما هو دون تغيير، ولا يحدث شــيء غير متوقع. مجرد رحلة بســيطة إلى قلب المدينة تعتبر بالنســبة لك رحلة إلى المجهول، دائما نفس التجهيزات، نفس سائق التاكسي، نفس السيارة، نفس التسلسل الكامل للطقوس. إن موت الوالدين كان من الممكن أن يكون بالنســبة لك فقدانا لأساس الحياة على الإطلاق.

الآن وددت لــو قمت بتقليد أخي، وبقيت جالســا في الترام، وطــردت كل الــركاب الصاعديــن إليــه، وعطلــت كل الأبواب الأوتوماتيكيــة، محميا كما في حوض زجاجي، متنقلا بين أحياء زيوريخ السكنية. لم يعد ممكنا أن يحدث لي شيء، سأمسك بجرة الرماد فوق ركبتيّ، مثل أحد المقيمين في مستشفى المجانين وهو يمســك دمية الدب الوردية الخاصة به والمصنوعة من القطيفة. ســأكون محميا في عربــة الترام هذه كما فــي قفص فاراداي، لا شــيء يمكنه الوصول إليّ، ولا يستطيع أحد أن يمسّني، وربما أنــادي: لا تقتربوا مني! لا تضايقوني! لا تلمســوني! في الكيس الــذي أحمله توجد قنبلة. أنا على الطريق وســوف أحافظ على النظام نهائيا وعلى نحو حاســم. ينبغي أن يحدث شــيء يا أخي العزيز، العالم أصبح خارج الســيطرة، ويحتاج لفرقعة، كي تعود الأشياء إلى طبيعتها مرة أخرى.

سأسافر عبر تسفينجلي شتاد، ولنقل إن الوقت سيكون منتصف النهار، والشوارع مكتظة بالناس، يمشون يهرولون، يضحكون، مناظرهم عابسة، كما في متحف الشمع. الكل يتحرك وفق قواعد اجتماعية نفسية دقيقة كالعميان، سوف أفتح لهم عيونهم، مثل قاتل أوكلاهوما، مثل الأصوليين الدينيين، وكما منظمة الألوية الحمراء في الماضي، وسوف يقع اختيارهم عليّ، وسوف أنسف نفسي في الهواء مع القنبلة، سأقوم بتضحية كبيرة للغاية، دمي المُراق في كل مكان، وأشلاء جسمي وعظامي المتناثرة في كل اتجاه سوف تقوم بالخلاص وتفك التعويذة. أخي سوف يتمكن فجأة من استخدام كل طاقة جسمه، وقوة ذراعيه، ويديه ونقلها إلى عجلات كرسيه المتحرك وسوف يسرع في الخروج أخيرا من بيت أبويه، تاركا وراءه كل شيء، طاولة خشب الجوز من الخمسينيات.

وطاولة الطعام ذات المفرش البلاستيكي المزهر، والسجادة الفارسية المهترئة وفوقها آثار كرسيه المتحرك، وكمبيوتر آي. بي. إم وماكينة الطبع ذات الصوت المزعج والحركة الكثيرة، إنها بقايا العصور الحجرية. نعم، لقد تراكم شيء ما في نسيج جسمه عبر السنين، تكونت مادة متفجرة. ذهابا وإيابا، سوف أترك نفسي في الترام، ستكون الرحلة بلا نهاية، وزيوريخ هذه لن تنتهي أبدا. في الليل سوف أترك نفسي ليأخذوني إلى كراج نهاية الخط. سوف أرقد في الظلام بين المقاعد على الأرض مستلقيا، وعمال النظافة لن يكتشفوني، عليهم أن يتركوني وشأني، بمكانسهم الكهربائية ومنظفاتهم ومماسحهم وفوطهم القماشية.

فيما كنت تفكر يا أبي في الواقع؟ وماذا كنت تقصد بكلمة واجب الابن هذه؟ هل كانت عاطفة مفاجئة؟ أم كانت مسألة حقيقية مثيرة للقلق؟ أم أنها رغبة أخيرة؟ وصية أخيرة؟ وهل يجب أن تتحقق على الإطلاق؟ ألا تكون أيضا لدى الابن بعض الحرية؟ أم أنك أرسلتني لهذه الرحلة بنوايا شريرة؟ أم كان ذلك أمرا تربويا؟ لقد دفعت بكل الاعتراضات جانبا أثناء نزهتنا في زيورخر أوبرلاند.. لم تقبل بأي شيء. حتى الإشارة إلى أن حفيداتك ربما يردن زيارتك فيما بعد، لم يغير هذا من رأيك شيئا. كنّ يردن معرفة أين الجد مدفون بالضبط، ولا يرغبن عند زيارة قبره في كل مرة أن يقمن بعملية تسلق للجبال تستغرق عدة ساعات. ماذا قلت؟ هل أسمع الآن أصواتا، أم بدأت في الكلام بالفعل مرة أخرى؟ هل يجب تنفيذ الوصية الأخيرة؟ أم يمكن الكذب فيما بعد، والغش؟ هل أقوم بتفريغ جزء من الرماد فقط؟ وأعود بالبقية لدفنها في مقبرة عادية، ألا يُسمح لي بأن أكذب عليك فيما بعد؟ هل يجب أن أطيع أوامرك حتى بعد موتك؟ أين من الممكن أن يكون الاستقلال ممكنا دون نعمة الكذب؟

أنت نفسك جعلت حماتك تُحرق حينئذ، رغم أنها كاثوليكية، وكانت ترغب في أن تُدفن، لقد قلت إن هذا شيء غير صحي، وعلى أي حال هي الآن ميتة، ولم تعد تشعر بشيء. هل ترى؟ أنا أيضا في إمكاني أن أقول ذلك، هذا شيء غير وارد، لا للتبذير، قبر عادي لجرة الرماد. وأنا طفل، كنت ألحظ، ولحسن الحظ، أنه كان يجب ألا أفعل كل ما كنت تأمرني به، لقد منحني الكذب حرية لا يمكن تخيلها، وكان بالنسبة لي ضرورة للبقاء على قيد الحياة. هل قلت شيئا يا أبي العزيز؟ هل تبدأ مرة أخرى

في التحدث؟ أنا لا أسـمعك جيدا.. صـوت محركات ماكينات الحصاد يغطي على كل شيء.

أما أخي فلا يمكن أن يكذب، لقد حُرم من نعمة الكذب، فقط لديه الخيال. في البداية كان عليه أن يتعلم اللغة الألمانية؛ لغته الأم، ثم جاءت اللغات الأجنبية التي كانت بمثابة السلالم للخروج من هنا. والآن، للخروج من محدودية حياته اليومية، كانت عبارة عن درج إلى السماء، يصعد على تركيباته اللغوية، درجة بدرجة، وهناك في القمة لا يحس فقط بحريته، لكنه يخشى أن يسقط إلى القاع، وأن يضيع في تجارب النصوص المكثفة كما في حياته الواقعية. لم تكن الجمل والكلمات مجرد إغراء له فقط، ولكنها كانت في ذات الوقت تجسد له خوفا وتهديدا، لقد صار أخي مرهف الشعور وذا روح حساسة.

هل ينبغي أن أضع جرة رمادك فوق طاولة مكتبه؟ أم خلف الكمبيوتر بجانب وعاء حفظ أقلام الرصاص وأقلام الحبر ومشابك الورق والمحايات؟ وهل سيترك أخي جرة الرماد في موضعها أم سيقوم بتخبئتها؟ ربما في درج المكتب، بجانب الصور القديمة؟ أم يدفعها بعيدا من فوق الطاولة بحركة من ذراعه وبشكل غير موقر، عن طريق الخطأ أو متعمدا، وتتحطم جرة الرماد فوق الأرضية الخشبية خلف طاولة المكتب، وتختلط بقايا رمادك يا أبي بتراب الشقة. نعم، أخي لا يستطيع أن يكذب، لكن صدقه هذا يقبض روحي! هل قلت شيئا يا أبي العزيز؟ وهل ستبدأ مرة أخرى في الكلام؟ أنا لا أستطيع أن أفهمك، عليك أن تتكلم بوضوح، ماذا تريد أن تقول لي؟ في النجوع المحيطة، والقرى، والأماكن السكنية بدأ الناس في الاستعداد للنوم، حملوا

كؤوس الجعة وأكواب الشـــاي من المناضـــد الصغيرة أمام جهاز التلفزيون، إلى المطبخ، وقاموا بوضعها في حوض الغســيل وفي ماكينة غســيل الأطباق. قاموا بحك بطونهــم أو ظهورهم أثناء ذهابهــم إلى غرفــة الحمام أو قاموا بجولة في غرفة المعيشـــة، أو بحثا عن شـــيء ما، أو قاموا بتدوين شيء ما، وقاموا بتجهيز ملابسهم لليوم التالي. هل تتذكر يا أبي، قبل عشرين سنة، قمت بكتابة خطاب إلى ابنك الثاني، أخي.

وعلــى نحو مفاجئ وضح موقفه لي، في يــوم من الأيام بعد الظهر كنت نائما نوما خفيفا على السرير، وأسلمت نفسي لتدفق أفكاري الهــادئ. وهنا توقف الفيلم فجــأة، وحدثت هزة، وكأن شيئا يشبه آلة نقر معدنية ضخمة يقرع في أعماقي، وأحسست أن رأسي على وشك الانفجار بسبب الصوت، والموجات الصوتية ســـدت خلايا جســـمي، حتى اليوم مازال دويهـــا في أُذني: أخي العزيز، لا يمكن أن يســـتمر الوضع معك بهذا الشـــكل، هكذا لا، إن هذي ليست حياة بالمرة، أخي العزيز: بإصرار بقيت على قيد الحياة، ومن يوم لآخر كان عليّ أن أعتاد حياتك معي.

فـــي تلك الأثناء كان موتك ســـيصبح حالة حزن حقيقية، ولم يكن متاحا لي أن أهرب من ذلك، لكني لم أكتشـــف أية تغييرات إيجابية برأســـك الذي يشبه المنطاد، ربما يكون ذكيا بشكل بارز، عبقرية موسيقية؟ أو عالم رياضيات؟ أما مؤخرة رأسي أنا فهي مســـطحة بعض الشيء، كان عليّ أن أعترف بذلك بصراحة، هل هو يجســـد منافســـة حقيقية لي؟ أم هو فرصة؟ لقد كنت أخي رغم كل شـــيء، ومـــن جوانبك الإيجابية صار فـــي إمكاني تعلم الكثير منك، هل ســـتختفي عيوب الولادة المبكرة مع الزمن؟ هل

سـيأتي يوم ما لا نجد فيك شيئا لافتا للنظر؟ هل سيصبح أخا طبيعيا؟ ولا يسـبب لنا العار؟ أم سنظل كلنا في المستقبل ملفتين للنظر معـه؟ من دونك كنا نبذل جهدا كبيرا حتى نصير أسـرة عادية، مثل الآخرين، والذين كانوا رغم ذلك يحتقروننا.

فور ولادتك قاموا بلفك في مناشـف دافئة، ونقلوك من قسم الولادة إلى مستشـفى الأطفال. أول رحلة لك كانت في سـيارة الطوارئ، في حوالي الثانية صباحا جاء الأب إلى المنزل وهمس: إنه ولد، كل شـيء على ما يرام. بعدها تحدثنا في السـرير عن أسـماء محتملة لك. قبل امتحاني للقبول في المدرسة الإعدادية بشهر، قمنا بإحضارك من المستشفى. الحذر مع أخيك الصغير، قلت في نفسـي، الحذر، ألا تتركه يقـع، حتى وأنت تحضنه في السرير، لا تضغط عليه فجأة. انظروا كيف يبحث عن ثدي الأم، صاح الأب في سـعادة غامرة، إنها غريـزة طبيعية. وصدر الأم الضخم كان لا يمكن إغفاله تحت الثياب. وددت لو كانت الأرض ابتلعتـي، لكن هذا أكثر شـيء طبيعي في الحياة، سـمعت أبي يقول، لا تكن خجولا بهذا الشكل.

هل تتذكر ذلك الخطاب يا أبي، وفيه كما كنت أعتقد في ذلك الحين، قـد قلت الحقيقة دون رتـوش، كان تأثير هذا الخطاب صفرا. لم يكن النقر يعبر إلى الخارج، وإنما كان فقط صوته في داخلي، لا شيء، ربما نغمة خفيفة، جدران سميكة عازلة للصوت ابتلعت صرختي هذه، واستمر الحال كما كان من قبل. من طاولة المكتـب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام. نعم، لقد انتهى أخي من دراسته الجامعية، وكانت درجاته جيدة. الآن، اعتقدت أنا، الآن، أنه يستطيع أن ينطلق. من طاولة المكتب

إلـــى طاولة الطعام، ومن طاولة الطعام إلى غرفة الحمام، ولكني كنت أتصور دائما شيئا مختلفا تماما له؛ حياة عادية، حياة عادية للغاية. هــل تفهمني، مع زوجة وأطفال، ومســكن خاص به، كل شـــيء كان يبدو لنـــا أمرا طبيعيا، كان بالنســبة له حالة خاصة للغاية. واســتمر الحال هكذا، ســنة شــجرية بعد سنة شجرية محسوبة رياضيا بدقة.

كل شـــيء تم ابتلاعه من خـــلال الجـــدران العازلة للصوت، والتي بناها الأب والأم والأســرة. يا إلهي، لقد فعلتما كل ما في وسعكما؛ بلا كلل كان عمل الأم الجدير بالإعجاب، وأنت أيضا يا أبي العزيــز، كان الاعتماد عليك طوال الوقت. كل منكما أعطاه ما يستطيع إعطاءه، ولكن دويّ النقرات لم يخرج منذ ذلك الوقت من رأســـي، أسمعه تارة بصوت عال، وتارة بصوت خفيض، وتارة أخـــرى يختفي تماما. والآن أخشـــى أن يــزداد مرة أخرى. ربما في المرة القادمة لن أســـتطيع تحمل دويّ النقرات، المرة القادمة ســيكون دويّ النقرات أعلى، دويّها ســيصير بلا رحمة وخلايا جســدي لم تعد مرنة، مع تقدمي في العمــر أصبح فرو طبلتي رقيقا بعض الشيء. أخي ليس شخصية في رواية، إنما هو واقع، لـــم يتخيل أحد منا مصيره، فهو يعيش حياته دون كلل وبطريقته المتواضعـــة وعلى نحـــو معين في صمت راضيـــا وقانعا. هل هو ســعيد؟ بالكاد يكون هذا ممكنا، أعتقد أنا من وجهة نظري.. لو كانـــت على الأقل لديه زوجة، نعم يا أبـــي العزيز، لو كانت لديه زوجة!

أشـــرت إليه مرة بمشـــاهدة فيلم «حب عاجز»، وكان رد فعله في ذلك الوقت وكأنني قمت بتقديم تقرير وثائقي له عن غربان

الجبال. لا أحد يعرض شيئا مثل هذا، قالت الأم، إن فيه إحراجا. الحب يجب أن يكون جميــلا، فالجنس المجرد عبارة عن جمباز بذيء. ولــدى المعوقين يكون تأثير الجنــس المحض أكثر مرارة، الشــخص المعاق في بدلته الأنيقة وفي دار نظيفة وجميلة يكون شــخصا مختلفا، مقارنة بهذا البؤس المعروض على الشاشة لم يحدث شــيء، واســتمر الحال كما هو عليه، مــن طاولة المكتب إلــى طاولة الطعــام، من طاولة الطعام إلــى غرفة الحمام. زال الخطر، ومرة أخرى ابتلعت الجدران العازلة للصوت كل شــيء، كأنها قطعة إســفنج بقوة امتصاص أبدية، لكن ذات يوم ستمتلئ قطعة الإســفنج بالماء عن آخرها، ولــن يمكنها تحمل المزيد من الماء، وسيقطر الماء من الجدران، بلا انقطاع سوف يسيل ويسيل، وفجأة لن يكون إلا هذا التدفق، هذا الســيل، هذا السقوط لكتل المياه.

لا يمكن إلقاء اللوم على أحد، لقد حدث ما حدث بكل وضوح، وتطور الحال وكأنه تفاعل متسلسل، وضد ذلك أنا أريد أن ألقي القنبلة، أريد أن يأتلف الحال بين ما هو واقع وما يمكن أن يكون.

منذ فترة ليســت ببعيدة، قمت بتكسير البندق مع حفيدتك، يا أبي العزيز، هل تتذكر؟ وقمت بأداء تمارين الضغط الرياضية حوالــي 24 أو 25 مرة. ضعفك المتزايد كان عبئا لا يمكن تحمله، وإهانة مــن العمر، رغم اتخــاذك كل التدابيــر الوقائية، أيضا بالنسبة لي كانت بداية تدهورك الصحي عبئا ثقيلا.

ولم تتفق مــع تصوراتي التــي كونتها عنك! الــذكاء، والقوة الجســمانية، صفات مميــزة للرجال في عائلتنــا، أيضا تحدي الأيام والتغلب على الصعوبات في الحياة، والدفاع عن النفس في

حالـــة الضرورة، كان كل هذا هو شـــعارنا، لكن التقدم في العمر مخادع. فعلى أقســـاط تبدأ الحياة في الفرار، خط التقارب إلى الصفـــر، وأخيرا تختفي الطاقة المطلوبـــة للحفاظ على النظافة اليومية، والروتين اليومي في المنزل. وطرأ التغير، فبدأ الإهمال في المنزل، في البداية كان على نحو غير واضح، صار التراب في كل مكان، كان ذلك في الماضي مســـتحيلا، فالأم كانت مهووسة بالنظافـــة، وقاومت يائســـة ضد هذا التدهـــور، ولكن بعد فترة وجيزة كانت هناك كرات من التراب وشـــعر السجاد خلف قطع الأثاث.

زاد المجهود للغاية، ولكن الطاقة لم تعد تسمح. ماكينة حصاد، هناك، هل تســـتطيع أن تســـمعني في وســـط هذه الضجة؟ من الممكـــن أن نبقى واقفين كما الأطفال، كما المتقاعدين أمام موقع بناء، نشـــاهد كيف تغير الماكينـــة اتجاهها، ربما يحدث أمر غير عادي، كأن تسقط المركبة مثلا أو تبقى متعلقة في حفرة. ها هي كشـــافات الضوء موجهة إلينا، عليـــك بغلق عينيك وإلا فلن ترى بعدها شـــيئا، فالعين تحتاج وقتا كي تتأقلم ثانية، نأمل ألا يكون الســـائق قد لاحظنا. كلا، إن ماكينة الحصـــاد تلف، أغلق فمك وتوقف لحظة عن التنفس، وإلا فســـحابة الغبار ســـوف تجفف حلقك، أنا لا أريد أن تصاب بنوبة سعال وأنت فوق ظهري، يا لها من سرعة تلتهم فيها الماكينات حقول القمح!

هل مازلت تتذكر يا أبي، كيف كنتم تدافعون عن الوضع القائم بشكل عنيد؟ هل تتذكر؟ كان الشعار هو فقط لا تغيير، كل شيء نتركه كما كان؛ كان أهم أمر هو رعاية الابن العاجز، حتى التهاب مفاصل الوركين، لم يمنع الأم من الاستمرار في العمل، والعملية

الجراحية شيء غير وارد، بالنسبة لي هذا أمر خطير للغاية، أنا لا أريـد تخديرا كاملا في مثل عمري هذا، بسـبب ذلك تصبح كثيـر النسـيان وربما تصير غبيا. أنا لا أريـد أن يتم حقني في الظهر، فربما أُصاب بعدها بالشـلل، فلست في حاجة إلى ذلك، لكنها كانت تتأوه عند المشي، فقد كان وزنها زائدا.

احتـرس، الماكينـات، لقد صارتا الآن اثنتـين، ربما تتوجهان إلينا، ربما تريدان دهسنا، كالمتهورين على الطريق العام، يريدون سحقنا، طحننا تحت العجلات العملاقة، التي يبلغ ارتفاعها قامة رجل، ربما يريدون تقطيعنا بسكاكين قواطعهم ذهابا وإيابا. كلا، إنهـم ينعطفون ثانية، لقد كانـت مصادفة، إنهم لا يتركون أحدا أبدا يثنيهم عن عملهم.

هل رأيت يا أبي سـائقا؟ يبدو أن إنسـانا آليا هو الذي يقود هـذه الماكينـات؟ ماكينات حصاد تُـدار بواسـطة كائنات غير أرضية؟ الآن عادت للاختفاء مرة ثانية في الظلام، إن ضجيجها عـال كالطائرات النفاثة، ودويّه في الأذن لا ينتهي. تعالَ، نحن لا نريد مقابلتها في لفتها القادمة.

التجديـد في البيت إذا كان غيـر وارد، كانت تكلفته مرتفعة الثمن بالنسـبة لك، والأم تفضل شـقة جميلـة بأربع غرف في طابق واحد وفي حالـة ممتازة. أيضا لم يكن واردا تعيين عاملة نظافـة في المنزل، هل تعتقد أنني أريد أن أشـعر بالخجل، هل تعتقـد أن أترك أحـدا يدخل بيتنا غير المرتـب؟ ماذا يمكن أن يقـول الناس عني؟ حلقة مفرغة، تدهور دائم إلى الأسـوأ، بعد ذلك تم إغلاق الغرف في الطابق العلوي، من الناحية العملية من الأفضل للأم أن تكون كل الغرف في طابق واحد.

الأم تنام بجانب المدخل، تماما بجانب الباب، هنا أشعر بأنني أكثـــر أمانا، فأنا بجانب ابنـــي إذا احتاجني، أما هو، أخي، فقد تحمل ذلك، لم يبد ولو مرة واحدة أنه غير ســـعيد، كان يتكلم مع الأم، ويتناقـــش معك يا أبي، يتدخل لتســـوية الخلافات بينكما، ويمنع وقوع الأســـوأ. بعد ذلك بدأ مفصل ورك الأم في التوقف عن العمل، وأصبح المشـــي يســـبب لها صعوبة كل يوم. رغم ذلك دارت عجلـــة الحيـــاة اليومية ولـــم تتوقف. أما بقيـــة العمل في البيت فتم تجاهله تدريجيا، من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، مـــن طاولة المكتب إلى غرفة الحمـــام، ومنها إلى طاولة الطعام، لا شيء يمكنه تعطيل هذه الطقوس. كنتم كالكواكب في مساراتها، لكن لا يمكن اســـتمرار الحـــال على هذا المنـــوال، عليكم أخيرا الاعتراف بذلك. لا إقناع، لا غضب، لا رجاء. لا يمكن فعل شيء، والكواكب تدور دون خطأ في مساراتها، وفق قوانين رياضية.

الشجارات المســـتمرة أبقت أجهزتكم العضوية حية، ومنحت الأكسجين لمســـارات الدم العائلية. من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، لا يمكن اســـتمرار الوضع بهذا الشـــكل، يجب أن تفعلوا شيئا!

ماذا ســـيقول الناس؟ أنا لا أبالـــي لقول الناس، صاحت الأم، أنـــت الذي كنت دائمـــا تهتم بما يقوله الناس، أنـــا أريد بالفعل، لكن أبـــاك! أنا أريد بالفعل، لكن أمك! إنـــه مأزق كبير وفظيع. كما لو كان عليك أن تثبت شيئا للحياة. في وقع تأثيرها، بمنطق عائلي خاص، في علاقة المجانين الثلاثة. كما لو كان يجب عليكم إثبات أنكم الأقوى في مواجهة القدر، في مواجهة الموت. ودارت كالكواكب في مساراتها دون هوادة، ودون رحمة.

وأنا أيضا سـوف أظل جالسا في الترام، حاملا جرة الرماد، مـن تيفين برونـن إلى بارادا بلاتـس، ومن بـارادا بلاتس إلى ألتشيتن، ومن ألتشيتن إلى بارادا بلاتس، ومن بارادا بلاتس إلى تيفين برونن، وجرة الرماد فوق ركبتيّ. سـوف أواجهكم وسوف أتحداكم بعمري ذي الخمسين عاما، فأنا أستطيع إنجاز ذلك في نهاية المطاف.

سـوف أكون ندا لكم، وسوف أتحداكم، ولن أتمرد بعد اليوم، وسـوف أتأقلم مع منطق العائلة، وأنضـم إلى نظامكم، أم أقوم بإلقاء القنبلة؟ وددت لو دمرت نظام الأسـرة كله، وقمت بإنشاء صفحة بيضاء، لقد فعلتم كل شيء للابن العاجز، ماذا كان يمكن أن يحدث من دونه؟ هل كانت الأشـجار سـتنمو إلى السـماء؟ أخـي العزيز: لقد كنـت أنت هنا، وفي هذه الأثنـاء، تعلمت أنا كيف أكتم نفَسـي جيدا، ولكني لم أستطع إنكار وجودك وشكلك المستفز وأنت رضيع. لماذا عيونه زرقاء وعيوني أنا خضر؟ هل كل الأطفال في هذا العمر لديهم حوَل؟ أم أن هذا سـيبقى؟ تراجع شـكل رأسه، الذي يشـبه المنطاد، بعض الشيء، لكن لم يتراجع الحوَل، لا نريد أن يكون أحد أفراد أسـرتنا أحول العينين، حتى لو كانت الأم ترى أن النساء الحُوّل جذابات بالنسبة للرجال.

فهـذا فقط حول عينَي رضيـع، عندما بدأت أنا بالمدرسـة في تعلـم اللغة اللاتينية، كنت أنت تتعلم الابتسـام، اثنا عشـر عامـا، تقريبا ثلاثة عشـر، فرق العمر بيننا! جالسـا في زاوية علـى الأريكة، تم وضعك بلطف، وتم تصويـرك من قبل مصور فوتوغرافـي. كانت الصورة التي يظهر فيهـا حول عينيك، هي بالـذات أجمل صـورة، قال الأب، فأنت تبدو فيهـا مغلوبا على

أمـــرك. يمكن لنا رؤية ذلك بوضوح، كيف أنه في احتياج لنا، في السـراء والضراء، رغم ذلك فإن الأم كبّــرت صورا أخرى. وأنا بـدأت أعتاد على أن لي أخا أحول. عندمـا تضع اليوم النظارة الشمسـية فوق عينيك، لأن ضوء النهار يسـبب لها آلاما، ولأن ذلك ينزع منك الإحسـاس الضروري بالأمـان، وعندما تتحرك فجأة أثناء الحديث بكرسـيك، عندئــذ لا يمكنني تفهّم موقفك دائما، وغالبا ما تتسـبب في إثارتي؛ أنت تُظهر شـيئا، أريد أنا خلف توتر أعصابي وسـخريتي إخفاءه؛ ألا وهو الخوف، الخوف المجهول المنتشر في كل مكان.

هروبك المحدد إلى غرفتك المجاورة، ودفعك المتشنج لعجلات كرسيك المتحرك، ورجوعك إلى طاولة مكتبك، كل هذا من شأنه أن يغضبنــي حتى وقت قريب، وأثناء ذلك كانت مسـاحة الحياة بالنسـبة لك تضيق من يوم لآخر، قريبا كان طريقك الوحيد هو المسافة بين غرفة النوم وغرفة الحمام، كان كل تغيير يغرس فيك الخوف، وفجأة جاء سائق تاكسي جديد، يقود بك السيارة، وأنت تخشى الأسوأ في الطريق إلى المدرسة، أن تصاب بالإغماء مثلا، قلت لي ذلك ذات مرة أو أن تفقد الوعي.

لقد كنت تبذل قصارى جهدك دائما، لئلّا يحدث ذلك. الأسرة كانــت تصور لك العالم الخارجي وكأنه منطقة ملغومة، فالخطر يتربص خلف كل جديد، الأمان تجده فقط في المنزل الموثوق به، أما في الخارج فيجب أن تتوقع الأسوأ دائما.

هل تتذكر تلك الرسـالة يا أبـي؟ قبل أن نأتي، نحن الأطفال إلــى الدنيا، كنتما، أنــت وأمي، زوجين جذابين، موضع حسـد الجميع، في الصور القديمة ذات الحواف المسـننة، أثناء البيات

فـــي الخيام، وعلى قمة الجبل، وزحافــات التزحلق على الجليد فوق الأكتاف، مبللـــين بالعرق، وذوَي جمـــال، مفعمَين بالحيوية والنشاط، مقدامين. زوجان جديدان، نمط حياة جديد، والمستقبل كان ملكا لكما، كانت الحرب العالمية الثانية على وشـــك الانتهاء، ثم جاء الابن الأول؛ بداية جديدة كأســـرة مرة أخرى. ربة المنزل الســـعيدة في المنزل تغني، مهندس الإنتاج الطموح فوق السقالة، ومع العمال في المكتب أمام طاولة الرســـم، لا شيء يمكنه تدمير الأســـرة السعيدة، ثم في عمر الســـابعة والثلاثين، تم بناء منزل الأســـرة، وقمت بزراعة أشجار وشـــجيرات في صفوف، وعمل حديقة جميلة، تم شراء أرنب، وعمل حظيرة من الخشب.

كم كنت ســـعيدا ذات يـــوم عندما وجدت أنثـــى كلب من نوع البوكســـر تقف أمامي في الممر، كانت تريد دائما أن تهرب، ومن خلال ضرباتك لها بالسلســـلة المصنوعة من الجلد، كنت تمنعها من ذلـــك. لقد قرأت في كتاب قديم عن الـــكلاب، أنه يجب أن تكون صارما مع الحيوانات، وإلا فســـتفعل بك ما يروق لها، بعد وقت قليل أصبح من الصعوبة السيطرة على أنثى الكلب، فعندما يكـــون الباب مفتوحا قليـــلا، كانت تضغط نفســـها للخروج منه وتهرب، وتبقى عند أناس غرباء، وكان يتحتم إعادتها، وكانت تئن عندما تراك؛ حينها قلت إن هذه ليســـت كلبة، وتم إبعادها، لقد كنـــت تتصبب عرقا عندما كنـــت تعمل في الحديقة في عطلات نهاية الأسبوع، وعندما كان يتحتم عليك قطع الشجيرات العالية بمقص الحديقة.

كنت تجعل من شجيرات عيد الميلاد الصغيرة شجرات كبيرة، ومن شتلات القيقب شجرة كبيرة، لقد كنت تقص العشب المرتفع

حتى الركبة بمقص الحشائش اليدوي، وعندما كان محور المقص يصيبه العطل، كنت تغضب وتثور، وقمت بشراء آلة لقص الحشائش ذات محرك، وكان قرصها الدوار ذو السكين يحتك بالحجارة محدثا صريرا عاليا، ومرة أخرى تغضب وتثور.

شعراتك القليلة كانت تلتصق برأسك مثل رضيع، كنت تعمل مثل مجنون، وتشرب ليترات من القهوة الباردة، وتحشو في جوفك شطائر الخبز المحشوة وتعود إلى العمل وأنت تمضغ الطعام، كنت تكاد تنفجر من الحيوية. نعم يا أبي العزيز، أنا لم أتحمل شيخوختك، سقوطك المفاجئ، ضعفك، وموتك المقترب.

لن أنزل أبدا من الترام، سوف أستمر مسافرا فيه، في هذه العربة النظيفة، ذات الأرضية القوية التي تتحمل مئات الآلاف من الأقدام، هذه الأرضية التي يتم تنظيفها كل يوم بالمواد الكيميائية الحادة، وهذه الجدران المنظفة برغوة الصابون، هذه الكراسي والمقاعد التي تُطهر من الجسيمات الترابية القذرة، حتى مسام الأغطية المصنوعة من النظبياون وتُعقم. أريد أن أدور بالترام في الشوارع، نظيفا، معقما، محفوظا أمام الحياة، وأمام الزمن، ويضيء الترام في الليل ويسافر الجنون معي، سيجد له مسكنا، كالجنّي في المصباح، سوف أنزع مقابض أبواب الترام الأتوماتيكية، وكل شيء سيكون مغلقا بإحكام.

هنا يسافر الجنون الصغير، في هذه الزنزانة الانفرادية، ستصبح وسيلة جذب سياحية مثل ترام الحفلات. ممنوعا من الخوف ومحبوسا في ترام زيوريخ، التابع لهيئة مواصلات المدينة، سأضغط أنفي على زجاج النافذة البارد، متجهم الوجه، ومتنفسا على الزجاج، وسأكتب فوقه بإصبعي، وأعطيكم علامات ورسائل

مشــفرة، ناظرا إلى الخارج باستمرار، على المبنى المهيب لجريدة نويا زيورخر تسياتونج وعلى مبنى التخطيط العمراني في بيلفي، وعلى دار الأوبرا ومروج زيكســلويتن، وما تــزال جرة الرماد فوق ركبتيّ. نعم يا أبي، ســوف أنثر رمادك، وسوف تكون خدمة الحب الأخيــرة، عفوا، ســوف يطير الرماد وســتهب ريــح خفيفة، من الأفضل لو كانت ريحا شــمالية، بعيدا عنــي، فالمنحدر يتجه إلى الجنوب، وإلا فإنني ســأجد غبار الرماد على شــفتيّ، وفي أنفي، وفي جهازي التنفســي، وفي فمي، وسوف تصطك أسناني عندما أخفي دموعي، وعندما تســكن الريح، يتحتم عليّ الرجوع بالجرّة في يدي إلى الوراء وبقوة أقوم بتفريغها في الهواء، حتى لا يسقط الرمــاد مباشــرةً أمامي، وعلــى قدميّ ويبقى عالقا بشــجيرات الخمان، والتي تتشبث بجذورها في التربة القليلة على المنحدر.

سيبقى الرماد عالقا، كما في مواقف السيارات، عندما يقوم قائدو الســيارات بتفريــغ منافض رماد الســجائر، وأيضا على العشــب بين المســتطيلات المطلية باللون الأبيض. ربما يتوقف الرماد للحظة في الهواء، ويحجب الشمس مثل سرب من الجراد، وماذا ســوف أفعل بالجرة الفارغة؟ هــل ينبغي أن أرميها خلف الرماد؟ أم أنزل بها من فوق سفح الجبل وأضعها في البيت؟ في مــكان ما في القبو بجانب أواني الزهور؟ أم ينبغي أن ألقيها في القمامة؟ والآن تتشــبث بي مرة ثانية يا أبي العزيز، أنا لا أتحمل ذلــك، فالجو قائظ إلى حد كاف، أنا مشــتاق حقيقة إلى المطر. هل تتذكر يا أبي؟

وجاءت النهاية على نحو مفاجئ؛ الأم لم يعد في استطاعتها أن تقف على قدميها، الســاقان صارتا متورمتين، كل لمسة كانت

تؤلمهما، وأصبح المشـــي مســـتحيلا. وتوقفـــت العجلة فجأة عن الدوران في عصر يوم صيفي عادي، قرب المســـاء تقريبا، بدأت الشمس في الانحدار من خلال النوافذ الزجاجية غير النظيفة؛ لم تعد الأم قادرة على المشي إطلاقا، هل سقط النجم من مساره؟ من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمـــام، هذا الطقس تلاشـــى بضربة واحـــدة. وكل التبريرات مثل: ســـوف يمرّ الأمر بشـــكل ما، إن الأمر ليس بهذا الســـوء، ممّ تعانـــون في الحقيقة؟ توقفت فجأة. قـــال الطبيب، لا يمكن اســـتمرار الوضع بهذا الشكل، الأوردة، العضلات، المفاصل، كلها أصبحت متورمة، الأم، قلب الأسرة، توقفت عن العمل. وأصبحت مهددة بالذهاب إلى بيت المســـنين، ودار الرعاية، حيث الوجبات المتشابهة والأفواه المفتوحة والأيادي المرتعشة والحساء المسكوب وسيلان اللعاب.

وأخـــي أصبـــح منفصلا من يـــوم لآخر عـــن الأم، وأيضا هو مهدد بالذهاب إلى بيت المســـنين ودار الرعاية، رجل ســـليم في الأربعين من عمره، ذات يوم ســـيموت دون أن يعرف معنى الحياة الحقيقية. ســـوف يموت قبل أن يحضن امرأة، من هو المســـؤول عـــن ذلك؟ في حـــين إني كنت أتمنى له حيـــاة عادية. إن إعاقته كبيـــرة، ولا يمكنه المشـــي، ويعتمـــد اعتمادا كليا على الكرســـي المتحرك، ويحتاج مساعدة خارجية لبعض الأعمال المنزلية، لكنه ذكـــي، وكان من الممكن أن يكون أكثر اســـتقلالا.. من الممكن أن يحصل على زوجة، ليســـت لديها مشـــكلات مع إعاقته.. وتقدّر مثل هذا الرجـــل بالذات، الذي هو محبوب ومتميز، ومن الممكن أن يســـكنا في مسكن معدّ للمعاقين، ويكون لديهما أطفال، ربما

ابن وابنة، وأن يعمل في وظيفة مناسبة، في مكتبة كبيرة مثلا أو ربما محررا، وأطفاله سوف يحبونه، ويحترمونه، لأن لديه أسلوبا مسالما ومرحا. وذات يوم أحد في الصيف سيذهبون إلى حديقة مطعم لتناول الطعام، ومفرش مائدة الطعام الأبيض سوف يبهر عيونهم، وسوف يغمزون بها، ويطلبون مظلة واقية من الشمس.

تقريبا أسـرة متوسطة المستوى عادية، الأب في الواقع مقعد لكنه ذكي للغاية وأنيق، واستطاع أن ينجز شيئا في حياته، فهؤلاء النـاس إما أن يكونوا سـاخطين أو قادرين علـى إنجاز أهداف عظيمة، وكان سيسـاعد أطفاله في الواجبات المدرسية، ويكون مسـتمعا عطوفا؛ يفرح لنجاحاتهم ويبدي ابتسـامة خفيفة عند فشلهم، وكان بكل تأكيد سيعيش حياته، وربما توقف أحيانا عند طاولة مكتبـه قليلا، ينظر من النافذة، حين ينزل ابنه مسـرعا على السلم حاملا حقيبته الرياضية، ربما يظل متأملا للحظات، وربما حزينا. سـيكون محترما، وعضوا نافعا في المجتمع، وربما حتى كان عضوا في رعاية المدرسة أو مجلس البلدية.

لكنه الآن أصبح مهددا بدخول بيت الرعاية أو بيت المسـنين. ربما كانت هذه الهموم لا أسـاس لها من الصحة، وربما سـارت الأمـور كما كانت من قبل، واسـتمرت دائما؛ مـن الطاولة إلى السرير ومن السـرير إلى الطاولة. وربما ترك نفسه ليعيش في دار الرعاية بطريقة مشـابهة، نـادرا ما تمرد الأخ ضد مصيره، دائمـا على ما أعتقد كان يسـتطيع التأقلم، ربما مرة أو مرتين، صـرخ أو انفجر وقام بقذف قلم، لكن غيـر ذلك لو كنت مكانه لانقضضت عليكم، ومشـيت على أربع، وقمت بعضّكم مثل كلب مسـعور، وكنت ما تركتكم، كنت جعلتكم مسؤولين عن كل شيء،

وكنت مزقت ســريري بسكين، وانتزعت كل الصور من الجدران، وقمت بإزالة كل الرفوف، وألقيت الزجاجات على النوافذ، لكنت قد صرخت وناديتكم جميعا في وســط الليل بصوت مثل حيوان جريح، لكنت سرقت النوم من أجفانكم، ولكنت ظللت أصرخ حتى يوم القيامة.

وكنــت قد أضرمــت النار فــي غرفتي، وأصبحت مشــعلا للحرائــق، مثلك يا أبي اليوم، لكنت صرت الشــخص الذي كنت تتخــوف في الماضي أن أكون، عندما كنــت ألعب بأعواد الثقاب وأنا طفل. هل تســتطيع أن تكون أكثر هدوءا يا أبي؟ لماذا تتمايل دائما بوسطك، ألا تلحظ أنك تجعلني أفقد توازني وتزعج إيقاع خطواتي؟ سنحتاج قليلا من الوقت حتى نصل إلى الكوخ، وهناك ســوف تجد راحتك، سوف أجلسك في كرســيك أمام النافذة، حتــى يمكنك رؤية مناظر الطبيعة في الصباح الباكر، لن تشــبع مــن النظر إلى التلال المليئة بالأشــجار، وقمم الجبال، والوديان المنبســطة، ســوف تترك عيونك تتجول في الأفــق، حتى معالم جبال الألب التي يلفها الضباب.

هل مازلت تتذكر كيف كنا نعمل ســويا لبناء هذا الكوخ؟ أنت لــم تكن تعتقد أنني قادر علــى عمل مثل هذا؟ أنا مازالت أتذكر ذلك جيدا، كيف كنت تمســح عرق وجهــك بظهر يديك، وكيف كنت تجلس للحظة لتلتقط أنفاسك. كنا نعمل بإصرار حتى بعد حلول الظلام، بمرور الوقت أصبح العمل الصعب ســهلا، وذلك لأننا أصبحنا فريقا منســجما، مرات قليلة، قضينا الليل هناك فــي العالي، في الهواء الطلق، وعند الفجر كنا نقوم بعمل القهوة علــى النار، ثم نعود بعدها إلى العمــل. أعتقد عندما كنت آخر

مــرة هناك مع مارا، تركنا علبة نســكافيه مليئــة، والتي يمكننا بالتأكيد اســتخدامها، كذلك علبة من لبن القهوة المكثف، نعم يا أبي، سترى أنه في إمكاننا إنجاز ذلك.

سوف نســكن هنالك ســويا، مازال لديّ الكثير من الأسئلة، ماذا كنتما تفعــلان حقيقة في الماضي أنت وصديقك، الطبيب؟ لماذا كانت تتكاثر الأسماك في أحواض السمك والبرمائيات في الأحواض الزجاجية؟ هل قمتما بإجراء التجارب في القبو الذي أعيد بناؤه؟ هل قمتما بوقف نمو الشراغيف من خلال معالجات مناســبة؟ هل قمتما في الورشة الصغيرة التي كانت تقع مباشرة بجانب قبو النبيذ وبجانب غرفة الغسيل والتي كانت بها عصّارة مــن النحاس في ذلك الوقت، هل قمتما بلعب دور فرانكشــتاين قليلا؟ مــاذا كنتما في الواقع تفعلان بعد الحفل المســائي، يوم الأحد، عندما خرج الآخرون للتنزه، أو كانوا في الكنيســة أو في ملعب الرياضة؟

كان وجهك شاحبا، وكنت تشبه حيوان السمندر الذي لا يرى ضوء النهــار أبدا، هل كان ذلك مجرد هوايــة؟ أم كنتما بالفعل تقومان بالبحث؟ فــي ذات الليلة، عندما كان الابن الأكبر يحمل أبــاه فوق التل في زيورخر أوبرلانــد، كان الابن الأصغر والمعاق جسديا يريد الخلود إلى النوم، عندما شعر بحاجته للتبول وظن أن هذا الإلحاح سوف يوقظه أثناء الليل وقد يصبح مزعجا. يبدو أنه أكل الكثير من سلطة الذرة وشرب ماء معدنيا بالإضافة إلى القهوة، إن كل هذا ينشــط المثانة، كانت الأم تقول له ذلك دائما، لقد قلت لك دائما ألا تشــرب الكثير قبل الذهاب إلى الســرير، وعــادة هو يحافظ على ذلك، لكن اليوم الجو كان حارا على غير

المألوف، وشفتاه كانتا جافتين، نادى: أمي، لأنه يحتاج مساعدتها كي ينهض، فهو لا يستطيع الذهاب لدورة المياه بمفرده. يا أمي! ولكن يبدو أن الأم قد نامت، لأول مرة تصبح الأم مرهقة بعض الشيء منذ عيد ميلادها الثالث والثمانين.

وكرر النداء: يا أمي، هل يمكنك من فضلك مساعدتي! مرة أخرى لا شيء. إنه لا يريد إيقاظها لسبب غير ضروري، وفكر في نفسه، ربما يمكنه النوم بمثانة ممتلئة، عليّ فقط ألا ألح على ذلك بإصرار، فالأمر ليس عاجلا، فربما يتراجع الإلحاح ثانية، لكنه أحس مع ذلك بالقلق بعض الشيء. في العادة هي تستيقظ عندما يناديها في المرة الثانية، فإلى حد ما نومها خفيف، واعتادت على إيقاظه لها، لكن مثانته لم تهدأ.

يا أمي، صاح الآن بصوت عال وواضح، أمي! وصرخ في النهاية، مرة أخرى لا شيء، توقفي يا أمي عن هذا هل تمزحين؟ أمي، هل أنتِ في حالة سيئة؟ طوال حياته كان يخشى هذه اللحظة، وكثيرا ما حاول إزاحتها جانبا. لا تفكر في ذلك، فقط لا تفكر في ذلك، وإلا ربما حدث، لكنه كان يعيش كما فوق بركان، يوما ما سوف تبدأ الأرض في الاهتزاز، وسوف تترنح الجدران، وسوف تحدث شروخ، ويتساقط الطلاء، وتسقط الصور من الجدران، ويقع الأثاث، وتنهار الأسوار.

الآن حان الوقت، وكان مختلفا للغاية عما كان متصورا. بكل هدوء، كان فقط يسمع نبضاته، يا أمي! صرخ مرة أخرى، لا شيء، ساد الصمت، مد يده نحو الهاتف اللاسلكي فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، كان مرتبكا وبحركة خرقاء انزلق الهاتف من بين يديه وسقط فوق الأرض الخشبية، رفع نفسه

عاليا بعض الشـيء وتشـبث بيديه بحافة الفراش، وشد جسمه إلى طرف السـرير وتحسس مكان الهاتف، الذي أصبح لا يعمل، فالجهاز الحسـاس ومن خلال الضربة القوية على الأرض، صار معطلا، لم يعد في إمكانه طلب نجدة، يا أمي! صرخ مرة أخرى، ربما كان كل شيء فقط مجرد كابوس، لا شيء.

لم يجرؤ حتى على إشـعال الضوء، ففي الظلام كان يشـعر بالأمان، أما في الضوء السـاطع فربما يكتشـف على نحو غير متوقع ما يمكن أن يجعله يشـعر بالرعـب والفزع، فليمكث في الظلام، وكأن شيئا لم يكن، فليبق الأمر سرا، ولا تُكسر التعويذة. مـرة أخرى تناول الهاتف اللاسـلكي، لكن الجهـاز ظل صامتا، كان يسـمع نقرات المنبه الكهربائي، وصوت طنان الثلاجة قادما من المطبخ، وطقطقة خشب سـقف الغرفة، كان الوقت ما يزال العاشـرة والربع ليلا، وقام بالنداء مـرة أخرى، وبتردد: يا أمي! بعد ذلك أشعل الضوء في غرفته، ورأى أن شيئا لم يتغير، ونظر بطرف عينه إلى الباب الموارب في الناحية الأخرى، هناك، حيث مرقد الأم، لكنه سـرعان ما أشاح وجهه بعيدا في الحال. عليه الآن أن ينهض، أن يفعل شيئا، مرة أخرى رفع نفسه عاليا، وحاول إنزال ساقيه من فوق حافة السرير إلى أسفل، ساقيه المتقلصتين بفعل توتر العضلات.

تشابكت يداه مع غطاء السرير، وجذبه فوق رأسه عن طريق الخطأ، وعندما لم يسـتطع فورا إزاحته، تملكه الرعب للحظة. تمكن أخيرا من أن يخلّص نفسـه، وأن يضع قدميه على الأرض، وأمسك عمودا تم تركيبه خصوصا له، محاولا رفع جسمه عاليا، كـي يصبح في وضع الجلـوس، لم يكن أبدا فـي حياته مجبرا

علــى أن ينهض بمفرده، كان هناك دائما من يقوم بمســاعدته، لم يحس أبدا بالتعاســة أو أنه معاق، طالما الأم هنا، ما لم يمكنه إنجازه، كان هناك من ينجزه له في الحال. لم يشــعر بأن شــيئا ينقصــه، لكن الآن وفجأة، كان عليه الاعتماد على نفســه، تمكن مــن النهوض، وعليه الآن أن يثني وســطه إلــى الأمام، وأن يمد ذراعيه ليصل إلى كرسيه المتحرك. أخيرا استطاع أن ينجز ذلك، أمســك بمقبض الكرسي، وقام بســحبه نحوه ودفعه إلى وضعه الصحيح، ثم شــد نفسه عاليا إلى العمود، وحاول أن يدير نفسه في اتجاه مقعد الكرســي، وببطء يستعد للجلوس، لكنه استطاع فقــط أن يصل إلى حافــة المقعد، وانزلق الكرســي بعيدا رغم فراملة المشدودة، تمكن الابن المعاق بفضل يديه وذراعيه القويتين من أن يمسك العمود بقوة وللحظة، لكنه دار عكس اتجاه عقارب الساعة وســقط على الأرض، حاول لاهثا، ولباسه مبلل بالعرق تحت إبطيه، أن يعدل نفسه على الكرسي، لكن الأخير كان أيضا على وشــك السقوط، كان عليه أن يعيد المحاولة بطريقة أخرى، عليه أن يجذب نفســه عاليا إلى العمــود، وأن يجلس ثانية على السرير، ومنه إلى الكرسي المتحرك.

أخــي العزيــز.. حتى لا تزعــج احتياجاتك أحــدا، عمل الآخــرون على ألا تكــون هذه الطلبات كثيــرة، كان عليك أن تنشأ في نظام قوامه الرضا وغير متأثر بالظروف الخارجية، كان غيــر مســموح أن يشــعر بأنه يفتقد شــيئا أو أن يدرك أنــه معاق، فمن الممكــن أن يصيبه رعب لو أنــه أدرك فجأة عجزه واحتياجه للمساعدة. لقد فرضوا عليك الجنة، سمّينا الاحمرار الذي كان يغطي نصف رأسك بقعة حمراء صغيرة،

ومع الوقت صار هذا اســم الدلع الذي أطلقناه عليك: حبيبنا ذو البقعة الحمراء الصغيرة.

بمرور الوقت ســيختفي هذا العيب الجمالي من تلقاء نفسه، إنها فقط كدمات، قالها طبيب أمراض النســاء، كل شـــيء على مــا يرام. في حين إن مجيئك كان بالمؤخــرة عند النزول، أي أن وضعــك في رحــم الأم كان بالمقلوب، كان يجــب أن يتم هذا في ذلك الحين، وبقيت لفترة طويلة تخضع للعلاج الإشــعاعي، حتى يصبح الجزء الظاهر من البقعة تحت الأذن أبيض بعض الشيء، وماذا لو صار ذات يوم مثل الأب أصلع؟ نعم، ســيكون حتى ذلك الحين قد عثر على امرأة منذ وقت طويل. كنت وأنت مستلق على بطنك تمد ساقيك، وعندما كنت تتململ، كانت قدماك تتشابكان ببعضهما، كانت مفاصل الركبــة لا تكاد تتحرك. يا إلهي! صاح الأب فجــأة ذات يوم أحد بعد الظهر، هنــاك خللٌ ما، وبدأ في تحسس ســاقيك. في يوم الإثنين، قمت بتسجيله لدى الطبيب، هناك شــيء غير عادي لديه، فقدماه صلبتان للغاية، ظننت مرة أخــرى، أن الكارثة تمت إزاحتها جانبا، وعضلات الســاق كانت صلبة ومشدودة.

في ذلك الحين، كان هذا أمرا صغيرا ملفتا؛ أعدّت الأم الكتالوج الكامل لتفسيره، عكس الأب الذي كان يتكلم بصوت يملؤه الحزن على المصير. ربما هناك شيء فعلا ليس على ما يرام، قال الأب، يجــب علينا فحصــه طبيا. كان هناك خوف وفــي نفس الوقت هناك أمل، فمن الممكن أن يتلاشــى القلق في الهواء، وإنه بقدر كاف من عصائر البرتقال والأفومالتين، يمكن أن تجعلك إنســانا سليما وسعيدا، كان الوالدان أسرى هذه التخوفات.

أما بالنسبة لي فقد ساعد نصحكما على نموي بشكل طبيعي، نتيجة الفحص الطبي لم تكن سيئة بالنسبة للأسرة، ووجب علينا مؤقتا أن نتقبلها، لأول مرة كنت أسمع عن الشلل الدماغي، يا إلهي! إنه معروف، قالت الأم للأب، هل تتذكر في الماضي، في فناء المدرسة، كان هناك الكثير من ذوي الأقدام المرتعشة، كان أحدهم إيطاليا وسيما، وهو محط إعجاب الفتيات، بالتمرين على الأرجح يمكن التخلص من هذا العيب. علينا أن ننتظر، قالها الأب وهو مصدوم، علينا أن ننتظر، كنت ترقد فوق البطانية الصوف على الأرض، لا تدري شيئا، وقبضتك اليسرى الصغيرة تتشبث بملعقة فضية، محدقا بحوَل خفيف في سطح الأرضية اللامع وبحالة ابتهاج، مستلقيا على بطنك وبجهد كبير كنت تمنع رأسك من السقوط على الأرض مرتعشا من الإجهاد، وبرز ظهرك المقوس عندما تمددت ساقاك في خط مستقيم، وبقيت قدماك معلقتين في الهواء. أنا لم يعد لديّ ثقة، قال الأب، كان الأمر يبدو وكأن كلّا منا يتهم الآخر بالتقصير. كانت الأم تقلل من أهمية الموقف، كلما كان الأب يخشى وقوع الأسوأ، وبخاصة في ذلك الحين كنا جميعا نحبك.

الملاحظات الأولية التي كانت تُظهر احتياجك للمساعدة جعلتنا قادرين على المساعدة وأقوياء، صار واقعا ما كنا جميعا طوال الوقت نخشاه، لكن على الأقل الآن أصبح كل شيء عاديا، واستطعنا معالجة المشكلة، ولم يعد الأمر يمثل تهديدا مستمرا، كما أن قدر العائلة تحقق على نحو وثيق. كان الأمر بغيضا بالنسبة لي، وبخاصة أنه لم يعد في الإمكان إخفاؤه. كان مبدئي ألا يكون هناك شيء لافت للنظر أمام الآخرين، فقد يمكنهم

معايرتي ومضايقاتي؛ إن أخاه ليس طبيعيا، إن أخاه مقعدٌ عاجز. هل تسمع يا أبي نباحا غليظا؟ إنها الثعالب، لقد صارت أكثر جرأة وتأقلمت مع حياتنا المتحضرة، ألا تستطيع التوقف عن الهزّ المخبول بوسطك ذهابا وإيابا فوق كتفي؟ في الغابة سوف نحس بالأمان ولن نتعرض للسطو.

في الماضي كنت لا تعرف معنى الخوف، كنت تملك قبضات قوية، لكن بعد ذلك ومع تقدم العمر صرت تستخدم سكين الجيب، فشفرتها كان طولها كافيا، وعند الضرورة يمكنك أن تصيب شخصا في القلب، إما هو وإما أنا؛ كنت تقول دائما. ردود فعلك مازالت طيبة، فمن مارس الملاكمة ذات يوم فلن ينساها بسرعة، في سنوات شبابك كنت تقوم بالتدريب على أكياس الرمل، وكنت توزع لكماتك القوية على كرة اللكم، وكان رد فعلك أثناء التمرين بسرعة البرق.

كان نمط الحبل يجعلك تلهث إلى حد بعيد، بالذات قفزة الفاصل، كنت تقوم بتغيير الساقين، اليمنى واليسرى، بالتناوب. وصحت عندئذ، فليأت فقط فرد، فقط فليتجرأ شخص؛ الضربة الأولى ستكون موجهة إلى الذقن، بعدها سيسقطون كالأكياس المبلولة، وضربة ثانية في البطن، عندها لن تكون لأحد أي فرصة للرد. من يريد منازلتي، يجب أن يجيد الملاكمة، كنت تقول دائما. أبي لا تمسكني بقوة، لا تخف، فلن تسقط، أنا بالكاد أستطيع التنفس، ألا تستطيع أن تجلس بهدوء؟ ألا تفهم ذلك؟ هل مازلت يا أبي تتذكر جدالنا حول عقوبة الإعدام؟ بالنسبة لك كانت هذه العقوبة أمرا بدَهيا؛ مثل أولئك الأفراد، يجب القضاء عليهم نهائيا، فكل فرنك يتم صرفه عليهم خسارة.

كل مــن يقوم بجريمة قتل بارد، يجب التخلص منه، ولا يمكن للمجتمــع تحمله. لكن هناك دوافع تجعــل المجرم مجرما، على سبيل المثال طفولة سيئة، لا يهمني، عندما يقتل شخصٌ شخصا بشــكل تلقائي، عندما يقتل بدافع الغيرة أو الانتقام، فهذا شيء آخر، عندما تكون العواطف هي السبب، فأنا أوافق على عقوبات أقل غلظة، كنت تقول، يا إلهي، كم تشــاجرنا، كم صرخنا. لأيام طويلة كنــت تقاطعني بعدها مثل هذه المناقشــات. رويدا رويدا أحس بعض الشــيء بثقل وزنك، منذ بدأت الصعود وأنا أشــعر بعضلات الفخذين. لحســن الحــظ أني مــدرب تدريبا جيدا، احترس! ســأفرد ذراعيّ قليلا، واحد، اثنان، واحد، اثنان، وأقوم برفع كتفيّ، فعضلاتي مشدودة بعض الشيء، فقط لو بقيت في هدوء، فسيكون الأمر أكثر سهولة.

فــي البيــوت المحيطة بنــا والمتناثــرة، في المــزارع والنجوع والقــرى، نرى بعضهــا وقد أضاء مصابيح الإنــارة، وقام الناس بإخلاء طاولات شرفاتهم من الكؤوس وأطفؤوا الشموع الموجودة في الأوعية الزجاجية وقد لســعهم البعوض. ســتأتي العاصفة الرعدية دون شك، فالبعوض اليوم عدواني للغاية، مازال البعض يجلس أمام التليفزيون وقد قام بفتح النوافذ بسبب الجو الخانق. ومرة أخرى يمر يوم، إن البعوض اليوم شيء مزعج، الآن لسعتني واحــدة في الرقبة ثانية، يا له من جو حار! يجب أن نقوم بتهوية الكوخ بشــكل جيد يا أبي ســيكون الجو ســاخنا بالتأكيد هناك مثــل فرن. لكن ربما تمطر بالفعل، وربما ســمعنا قطرات المطر كقرع الطبل على ســطح الكوخ، لكن السقف يمكنه التحمل، لقد تحققت من ذلك بنفسي، لقد أنجزنا عملا جيدا.

هــل تتذكــر عندما قمت بزيارتــك فــي دار الرعاية، وكانت ممرضة تقوم للتو بمسح مؤخرتك، كنت تقف مرتعشا أمام السرير ممسكا حافته بقوة، لم تكن قادرا على الوقوف، وساقاك تكادان تتهاران. الآن سننتهي حالا، قالت الممرضة في ودّ، لكن في المرة القادمة عليك أن تنادينا في وقت مبكر، عندئذ فقط يمكننا منع الكارثة. جرى البراز على الســاقين سائلا، إنه يصاب بالإسهال عندما يتناول وجبات معينة. لم أكن أعرف أن جلد الإنسان يمكن أن يصبــح بهذا البيــاض، يبدو أنه كان التناقــض للبراز الملطخ فقط. فقط لا تنظــر إلى هناك، فإن ذلك لن يرضيك، قلت في نفســي، إنه لشيء غير وقور بالنســبة إلى رجل عجوز، لو يتبرز مرة أخرى في السروال، بالذات عندما يتحتم على الابن أن يرى ذلــك. لكنني رأيت ذلك، مؤخرتك المترهلة، كانت عبارة عن لحم متجعد، لم تكن هنــاك أرداف بالمعنى المألوف، ولم يكن هذا أي عجوز يا أبي، إنما كنت أنت، أنت يا أبي.

إرهاصات الموت ما هي إلا ســكون شــرير، حتى وقت قريب كنت تقول إنك ترغب في إنجاز الأشــياء الأهم، جوته، فاوست، وبخاصة الجــزء الثاني، لم أفهمه أبدا بصــورة صحيحة. الآن لديك الوقت، المجلد الأخضر في طبعة بيرهاوزر للكلاسيكيات، من الأربعينيات، ســتجده فوق طاولة سريرك الصغير، بعد ذلك بفتــرة، وأنت في دار الرعايــة، كنت تريد أن أقــرأ عليك منه، ونســيت في الحال ما قرأته عليك، بعد ذلــك وبعد جمل قليلة دخلــت فــي النوم. هذا الجســد المضمحل والــذي نعتمد عليه اعتمادا كليا، صار مقيدا ومحدود الحركة. غالبا ما كنت أجلس بجانبك يا أبي، ونطل معا من النافذة، كان مجلد جوته الأخضر

فوق الطاولة بجانب منديل المائدة مباشرة وعلبة السكر، لم تنطق بكلمة، ومرت السـحب في السماء بسـرعات متباينة، فالسحب المنخفضة كانت سـريعة بفعل عاصفة الريح، أما السـحب في الطبقـات الأعلى فكانت تمر بهـدوء، كان يوما حارا مثل اليوم، وعاصفة رعدية على وشـك الهبوب. انعكسـت السحب الداكنة علـى صفحة البحيرة فصار لونها رماديا مخضرا، وفوق الأمواج تكونت قمم صغيرة من الرغوة، وارتفعت السفن الشراعية عاليا فوق المياه، من حين لآخر كان يلمع صاري سفينة في نور الشمس الغاربة المقابل. والمتزلجون على الماء انطلقوا بسـرعة فوق رذاذ الميـاه؛ وفي الغرفـة كانت رائحة البراز والبـول الكريهة في كل مكان، وأيضـا رائحة مواد التنظيـف والقرنبيط، بعدها جاءت قهوة بعـد الظهر، وحصلت على قطعة من كعكة المشـمش. إنه لا يسـتطيع أكلها للنهاية، قالت الممرضة، اقطع قطعة لنفسـك، فإلقـاء البقية خسـارة. كنت مازلت حتى ذلك الحين تسـتطيع تناول الطعام بنفسـك، وقمت أنا بقطع قطعة الكعك إلى لقمات صغيرة لك، كانت القطع الصغيرة في الحواف من السـهل ثقبها بالشـوكة وإيصالها للفم، أما القطـع الأخرى، من دون الحواف، فكانت تسـبب لك مجهودا، وعندما أردت أنا مساعدتك، قمت بإزاحة يدي بفظاظة جانبا. والقطع الأخرى لم يعد ممكنا ثقبها بالشـوكة، وحاولت أن تغرفها في الجانب بسـنِّ الشوكة، لكنها كانـت تنزلق في كل مرة بعيدا، حتى إنك اضطررت لاسـتخدام يدك الأخرى للمساعدة. كل قطعة كانت تنزلق من الشوكة، وفي النهايـة صارت طاولـة الطعام كلها ملطخـة، أيضا فوق بنطال حلّتك الرياضية كانت هناك قطع مهروسـة من المشمش، وأردت

التقاطها بأصابعك، كما حاولت تنظيف نفسك بالمنديل، ولكن بقايا ورق المنديل اختلطت بقطع المشمش المهروسة، والغلاف الأخضر لمجلد جوته كان يلمع في ضوء الشمس المنحدر، وفي زاوية سقوط هذا الضوء، صارت بقع السمن على البنطال واضحة بشكل بارز.

هكذا، يا أبي العزيز، الآن لا بد لي من التوقف، وأن أعمل على ضغط عمودي الفقري، يا له من جو حار، لو تأتي العاصفة الرعدية قريبا، إن حماما باردا الآن من شأنه أن يجلب الاسترخاء. يا ترى ماذا تفعل مارا الآن؟ أتراها تفتقدني؟ ربما يجب عليّ أن أقوم بالخطوة الأولى، عليّ ترك المجال لها بعض الشيء، وإلا أحست بأنها مُكرهة، وهل أرغب أنا بالحقيقة في المصالحة معها، لكن أنا لا أريد على أي حال أن أستمر في العلاقة بهذا الشكل.

أنا لا أريد أن أكون متوسلا بعد الآن، أم أبدأ في علاقة جديدة؟ من يريد بالضرورة رجلا عمره خمسون عاما؟ للمرة الأولى أحس بأنني لم أعد جذابا لعلاقة جديدة؟ وأسأل نفسي دائما نفس السؤال، أنت لا تستطيع الهرب من نفسك.

أبي، أنا لم أعد أعرف، ماذا ينبغي أن أفعل، هل عرفت أنت أيضا مثل هذه المشاعر؟ أنا لم أعتد مثل هذه الأمور، كنت دائما أجد حلا، وأقوم بعمل خطط وأفكار جديدة، لكن الآن لا أستطيع أكثر من عمل رسوم مضحكة، سرعان ما تتحول إلى رسوم كاريكاتيرية عبثية لنفسي وعن مستقبلي. هل العمر هو السبب؟ إن الآلة الداخلية في أعماقي والتي تعطي لحياتي معنى، توقفت فجأة عن الدوران، في الماضي كان اعتمادي عليها كبيرا.

كيــف يمكنني أن أبدأ حياتي مرة أخرى في حين إن الآخرين في مثل عمري يبدؤون في التراجع. استطاع الابن الأصغر، شديد الإعاقة، مرة أخرى شد نفسه عاليا إلى العمود، والذي كان الأب قد قــام بتركيبه له بحرَفية ماهرة منــذ زمن، وفي الأعلى وفي أقصى مكان يســتطيع أن يصل إليه بعضلات ذراعيه المتشنجة، تمكــن من الإمســاك بالعمود وضم يديه القويتــين حوله، ودفع نفســه بكل قوة إلى الأعلى حتى تمكن في النهاية وبحركة دائرية خفيفة من أن يســقط بجنبهِ فوق الســرير، وبعد عدة محاولات غير مجدية اســتطاع أن يفك مكابح الكرســي المتحرك، والذي كان قد تحرك بعيدا عن السرير بفعل الأحداث السابقة، وتمكن من جعلهِ في الوضع الصحيح، بعدها قام بتثبيت مكابح الكرسي مجددا، هذه المرة يجب أن تنجح المحاولة، فهو لا يريد أن يسقط من فوق مقعد الكرســي ثانية، قام بمســح يديه المبللتين بالعرق بفعل الإجهاد والطقس الحار بغطاء السرير، بقوة والآن يجب ألا ينزلق حينما يقف منتصبا مرة ثانية وممسكا بالعمود. قبض بقوة على العمود الخشــبي وضم أصابعه حوله كما لو أنه يقوم بخنق عدوّ له، تشــبثت قبضته بالعمود وكأنه وسيلته الوحيدة للنجدة حتى لا يســقط إلى الهاوية، وعدّل نفســه في الوضع المناسب، وتــرك يديه بوصة بوصة تنزلق على العمود ليهبط إلى أســفل، فوق مقعد الكرســي المتاح، هــذه المرة يجب ألا يجلس في المكان الخطأ. قام بإســناد الردف الأيســر من مؤخرتهِ على الكرسي، واســتطاع بمهارة أن يدفعه إلــى الناحية الأخرى بدون أن يترك العمــود، وتمكن أخيرا مــن أن يجلس بمؤخرته كاملة على مقعد الكرسي المصنوع من الجلد الصناعي، لقد نجحت محاولته!

يـا أمي! نـادى مرة أخرى: يـا أمي! ردي علـيّ! بعدها بدأ باسـتخدام حركات يده المعتـادة، ومقابض اليـد المعتادة، التي يضغط بها إلى الأمام بشـكل متقطع فوق الحلقة المصنوعة من الكروم الصلب والمركّبة في عجلة الكرسي، يدفع إلى الأمام بقوة ودون ضغـط، يترك يديه لتنزلق، إلـى الأمام وإلى الخلف، رغم تدريبه الجيد على اسـتخدام الكرسـي المتحرك، لكن في حالة ارتباكه هذه، كان الأمر بالنسبة له ليس سهلا، أن يدفع نفسه ما بين السـرير وطاولة السرير الصغيرة والحائط إلى الخارج، إلى الممر الصغير المجاور بين دورة المياه وغرفة الحمام، والممر الكبير الـذي كانت الأم تقضي فيه الليـل، وذلك بعد إغلاق الغرف في الطابـق العلوي، كان يريد التوجه فورا إلى حيث ترقد الأم، لكنه كان يخشـى مما يمكن أن يـراه، كان يخاف من رؤية الأم، أحس في نفس الوقت أن مثانته على وشـك الانفجار، وأنه لم يعد في اسـتطاعته حبس البول، واضطر للعضّ على أسنانه. دفع نفسه فـي اتجاه دورة المياه، ودفع البـاب دفعة قوية، كي يبقى مفتوحا على آخره ولفترة كافية حتى يستطيع أن يدلف بكرسيه المتحرك إلى الداخل.

اضطر مرة أخرى إلى شد فرامل كلتا العجلتين في الكرسي، وبمسـاعدة عمود مثبت أفقيا في الحائط، تمكن من رفع نفس عاليا، إن هذا أمر بسيط، لقد اعتاد على تأدية هذا العمل دائما، بعدها شدّ بإحدى يديه بنطاله إلى الأسفل، وباليد الأخرى حاول حفظ توازنه، يجب عليه إنزال البنطال إلى الأرض، لأنه لا يريد تلويث البنطال بالبول، واضطر إلى الجلوس فوق المرحاض ببطء، وبعد إنزال ماء السـيفون، قام بالقبض على العمود وحاول رفع

نفســـه مرة أخرى عاليا، وباليد الأخرى حاول إمســـاك البنطال وشده إلى الأعلى. في مثل هذه الحالات كانت الأم دائما تساعده، فالأمر بالنســـبة له لم يكن سهلا، كان على وشك أن يفقد توازنه مـــرة أخرى عندما قام بلف نفســـه وهو ينحنـــي، لكنه تمكن من الإمســـاك بالبنطال، ونجح في رفعه حتى الركبة، غير أنه لاحظ أن رجل البنطال قد انزلقت من ساقه، فاضطر معها لتركه ينزل على الأرض، وحاول مرة أخرى أن يجد طريقا لســـاقه في رجل البنطال. مازال ممسكا بالعمود بقوة واضطر للانحناء كي يفتح رجل البنطال بشكل يســـمح لقدمه بالدخول فيها، لكنه في هذا الوضع لم يستطع أن يرفع قدمه من فوق الأرض بسبب إعاقته.

لـــم يتمكن من إيجاد مدخل رجل البنطال، تشـــابكت يداه مع قمـــاش البنطال، ووجب عليه ممســـكا بالعمود رفع نفســـه إلى الأعلى مرة أخرى، مقاوما شـــدا عضليا مفاجئا، وتوقف لحظة قصيرة ليلتقط أنفاسه، كان جسده مبللا بالعرق، والتصق الجزء العلوي مـــن ثيابه بصدره، بعد عدة دقائـــق حاول وهو في حالة الوقوف رفع قدمه، كي يضعها في رجل البنطال المفتوحة، بعدها أمسك مقبض الكرسي بيده اليمنى، محاولا الانحناء ببطء.

نجـــح أخيـــرا في القبض علـــى طرف بنطالـــه، ورفعه بعض الشـــيء عاليا، ثم أدار نفسه فجأة، وفي نفس الوقت ظل قابضا علـــى العمود، وكانـــت قبضته حديدية، لقـــد كادت الطاقة التي بذلها في تحريك جســـده تخلخل عظامه وتمزق أوتار يديه، مثل بهلـــوان جمع كل قواه؛ ومتنهدا كرافع أثقال تمكن من العودة إلى مكانـــه في الوضع الأصلي والصحيـــح، والذي كان فيه من قبل. لكن بنطاله عاد الآن للســـقوط مرة أخرى على الكاحل، والتصق

شــعره برأسه فبدا مثل قبعة مبللة، وســمع دوّي دمه في أذنيه. نادى يائســا: يا أمي! لا بد أن شيئا فظيعا قد حدث. وبدأ ثانية في ارتداء البنطال، لكــن قدمه كانت قد انزلقت مرة أخرى من رجلي البنطال، بدا عليه اليأس، لكنه في نفس الوقت أدار نفسه بعيدا وبقوة كي يســتطيع الجلوس على مقعد الكرسي المتحرك، أما البنطال فقد تركه متدليا فوق أحد الكاحلين.

قام بغســل يديه تلقائيا كمــا كان دائما يفعل، وكما تم تعليمه طــوال الوقت، فلدى المعاقين بالذات يلعــب عامل النظافة دورا مهما، قام بعدها بتجفيف يديه ومسح بالفوطة على وجهه المبلل بالعرق، بعد ذلك حاول إخراج نفسه، بحركات كان مدربا عليها، مرة ثانية من دورة المياه متجها إلى الممر، أدار كرســيه المتحرك ناحية الممر الكبير، حريصا على ألا يسقط بنطاله كاملا، محاولا ســحبه على الأرض، ظل لحظة متــرددا، كان خائفا من المنظر، والذي ســوف يكتشــفه حالا، إنه لا يريد بعد أن يرى الحقيقة، صورة الأم العظيمة هذه، وجه الأم الشــاحب، بلا حياة. وتخيلها أمامه، وعيناها جامدتان، والفم المفتوح واللسان خارج الحنك.

كان يخشــى أن تروعــه نظراته إلى جســد الأم الميت، مرت هــذه التخيلات بذهنه ســريعا. كيف يا ترى يبدو شــكلها، ربما كان نصف جســدها مغطى، أو عارية تماما وســاقاها ممددتان متباعدتــان عن بعضهما، وأعضاء جســمها مجهــدة من جرّاء صراعها مع الموت، ربما كان الدم ســائلا مــن فمها، لكن يجب عليّ أن أساعدها.

ودفع نفســه مصمما إلى الممر نصف المظلم، وكاد في ارتباكه أن يغفل رؤيتها، كانت ترقد كعادتها مغطاة في الســرير، قال في

نفســه ربما كان كل شــيء على ما يرام، وناداهــا مترددا بعض الشــيء: يا أمي! وســاد الصمت مرة أخرى، ولم يخرج منها أي صــوت. تحرك بكرســيه مقتربا للغاية من ســريرها، لكنه ومن موقعه في كرســيه لم يتمكن من لمسها، كان عليه أن يرى إن كان جسدها ما يزال دافئا أو إذا كانت ما تزال تتنفس، أراد أن يتأكد، فترك نفســه لينزلق ببطء من الكرســي المتحــرك إلى الأرض، وأثناء ذلك جُرحت ساقه بعد اصطدامه بمسند القدمين المعدني في الكرســي. اســتدار حتى أصبح يزحف على أربع، واتجه إلى ســرير الأم زاحفا، وحاول أن يقف أمام السرير، حاول أن يركع على ركبتيــه، ونجح أخيرا أن يضع أحد أصابعه على وريد رقبة الأم، لم تكن الأم ميتة، فقد أحس نبضا ضعيفا، من المحتمل أنها أصيبت بسكتة دماغية، شــفتاها كانتا نصف مفتوحتين، ولعاب جاف قــديم كان لاصقا على ذقنها. قال: يا أمي، لا تخافي أنت لست وحدك، أنا هنا موجود وسوف أجلب مساعدة.

أخــي العزيــز.. لم أكن أبدا ســعيدا في الخــروج معك إلى الأماكــن العامة، كنت أعتقد دائما أن الناس تحملق في البقعة الحمراء الكبيرة. بعد فترة اختفت هذه البقعة تحت الشعر، لقد صــرت فجأة طفــلا كبيرا في عربة الأطفال الصغيرة، وبدأت علامات الدهشــة تظهر على وجوه الناس هل هما الوالدان؟ أم أن هناك شــيئا ليس على ما يرام مع هــذا الطفل؟ كان المطعم بالنســبة لي مكانا للعقاب البدني، كنت أود لو أستطيع إخفاءك تحــت البطانية، لو كان على الأقل فــي إمكاننا تعليق لافتة على عربة الأطفال الصغيرة، ونكتب عليها: إنه فقط قصور في النمو، وسوف يكتمل، من فضلكم ممنوع الشفقة.

الأطفـــال المصابون بمرض الشـــلل الدماغي هـــم في العادة أطفال جذابون، ولهذا الســـبب خاصة هم أيضا سعداء، فالأمر ليـــس له علاقة بكون الطفـــل طبيعيا أو غير طبيعي، الأمر ليس إلا اضطرابـــا حركيا. وثقـــت الأم ثقة كاملة في إيمانها، في مثل هذه الحالات يحتاج الإنســـان إلى الدِّين، فهو ينقصكم، هذا هو كل ما في الأمر، أنتم في حاجة إلى ديانة قوية مؤثرة، قالت الأم.

لن يســـتطيع المشـــي بطريقة طبيعية أبدا، ابني لن يستطيع المشـــي بطريقة طبيعية أبدا، لحســـن الحظ أنك لم تكن متخلفا عقليـــا، والأب لـــم يصدق أنك غيـــر طبيعي، وأنا في المدرســـة أصبحت في تراجع دراســـي، هـــل أنت في الحقيقة غبيٌّ أم أنك تتصنع الغباء كي تغيظني؟ وجّه الأب كلامه لي.

يا له من هراء، إن الإعاقة الجســـدية شيء مختلف تماما! يا له من شـــيء فظيع، كيف تتكلمـــون؟ قالت الأم. بهذه الطريقة لا يمكن لطفل أن يصبح ســـعيدا، إنه ليـــس معاقا بالمرة، إنه يعاني من اضطراب حركي خفيف.

هكذا يا أبي، لقد اســـتعدت إيقاعي مرة أخرى، ليس سريعا جـــدا، وليس بطيئا جدا، هأنذا أغذّ الخطى بقدر متســـاو، لقد اعتـــدت على وزنك، عندما تتصرف بهدوء، فلا تهتز ولا تتململ، يصبح بمقدوري أن أسير بك لساعات طويلة، قريبا سوف نصل إلى الكوخ، هل تظن أن كلا منا سوف يتحمل الآخر؟ الأب والابن؛ على مســـاحة ضيقة كهذه؟ أنت على أريكة، بجانب الحائط، وأنا على أخرى، في الجانب المقابل؟ ربما لا أستطيع النوم في الليل، ســـوف أسمع أنفاسك، وأسترق السمع بدقة، ربما سأكون خائفا أن تتوقـــف فجأة عن التنفس، أن تعاجلك حشـــرجة الموت، وأن

تتوقف أنفاسك نهائيا عن الصفير، وتأتي النهاية على نحو مفاجئ، وعندها ينتهي كل شيء.

سوف ينسجم كل منا مع الآخر، ربما تبدأ في الكلام مرة أخرى، لعل عقدة لسانك تنفكّ في هذا المكان المختلف، فقط أنت وأنا، هناك سيكون من الممكن تحقيق الكثير، سترى ذلك.
هل مازلت تتذكر كيف أننا، بعدما انتهينا من بناء الكوخ، قمنا سويا بالاحتفال، مساء يوم جمعة، كنت قد قمت بإحضارك فورا بعد انتهاء العمل؟ قبلها كنت قد ابتعت بعض الطعام، وقمت أنت بتدبير النبيذ، وكنت مندهشا لانتقائك أنواعا جيدة. كالعادة كنت ترضى بزيورخر لاندفاين، وتشيد بطعمه اللذيذ، لقد بذّرت كثيرا من أجل الاحتفال بتلك المناسبة. عندما صعدنا من موقف السيارات إلى الكوخ، بدأنا أنا وأنت في التعرق. أيضا في ذلك الوقت، كان مساء صيفيا دافئا، لكن في وقت مبكر من العام، نهاية يونيو، بداية يوليو. في البداية سرنا صامتين خلف بعضنا، ثم صحت أنت فجأة: لا تمشِ سريعا، أنا لم أعد شابا. أما أنا فلم أخفض من سرعتي، كنت أريد أن أرى هل مازال في استطاعتك تحمل المشي، فلقد كنت دائما معتادا عليه. كلما اقتربنا حقيقة من هدفنا قُربت المسافة بيننا.

وعندما أصبح الكوخ في مرمى النظر، سمعتك تلهث خلفي بانتظام، وبدأت تسرع خطواتك، حتى إنك استطعت أن تتجاوزني قبيل الوصول للنهاية. كان العرق يبلل جبينك، وشعراتك الرقيقة ملتصقة برأسك، كان شكلك يبدو وكأنك مكثت طويلا في حمام ساخن. في الكوخ كان الجو خانقا، حتى إنه كان من الصعب التنفس، ورائحة الخشب الطازج والصنوبر كانت تملأ المكان في

الخارج، حيث الشرفة الصغيرة المصنوعة من الخشب الخام، قمت أنا بإخراج طعام العشاء، كان الجو مختلفا هنا في الأعلى بالمقارنة بالمعتاد. حتى الآن كنا نأتي دائما للعمل في البيت، هذه المرة نحن هنا فقط من أجل أنفسنا، كيف يمكن أن يمر المساء هنا؟ كنت آمل لو اقترب كل منا إلى الآخر، لو تحدثنا سويا، ربما كان في إمكاننا إيضاح بعض الأمور، كان يهمني كثيرا أن تكون علاقتنا طيبة.

كنت أريد قضاء مساء لطيف معك، مساء طبيعي تماما وبسيط، ليس عاطفيا لكنه خال من الشجار. حسبما أتذكر، قمت أنا بنزع غلاف علبة اللحم المجفف، ووضعت شرائح اللحم المنفردة على طبقين. كلما استخدمنا أطباقا أقل كان غسيلنا لها أقل، في هذا الأمر، كان رأينا واحدا، في البداية تبادلنا الحديث في بعض التفاهات، لم تكن لدينا مشكلة في هذا، كنا نحب أن نتكلم بتلميحات ساخرة، كلانا كان لديه ميل لسخرية سريالية معينة. إذن، في نخبك..! قلتها ونظرت إليّ، كنت أخشى الخروج من هذا المزاج الجميل، ولكنك فجأة جعلتنا نستمتع باللحظة. في نخب بيتنا! لقد نجحنا فعلا بفضل معاونتك، لم أكن أتخيل أن في إمكانك إنجاز ذلك العمل، كل الاحترام لإرادتك وصمودك.

بدأت الشمس تغرب ببطء، والطيور تغرد وتبتهج قبل أن تخلد للراحة في أعشاشها وعلى ذرى الأشجار. سريعا صار نصف الزجاجة فارغا، لقد كان الطقس الحار يزيدنا عطشا، واللحم المملح جفف حلوقنا، وكلما مر الوقت تحدثنا دائما أكثر، وفجأة أحسست بالارتياح.

استطعت أن أترك نفسي واستسلمت كليا لهذا المزاج. خلاف ذلك كنت دائما مهتما بمراقبة العلاقة بيننا، وعندما قمت بفتح

الزجاجة الثانية وتذوقها، كنا بالفعل قد بدأنا في الثمالة، شربنا كؤوسنا وابتسم كل منا للآخر. هل مازلت تتذكر؟ كان حديثا طيبا، ضحكنا كثيرا، وفي هذه الأثناء كان قد حل الظلام. كنا نجلس في ضوء شموع الأوعية الزجاجية، وكنا نسمع من حين لآخر صياح بومة صغيرة، وخشخشة الفئران تحت أرضية الشرفة.

أحسسنا سويا بالحاجة إلى التبول في نفس الوقت، وعند وقوفي لاحظت أني ثمل بعض الشيء. عفوا! قلت أنت ضاحكا، هل تشعر بذلك أيضا؟ انتهينا من ذلك بينما كنا نترنح قليلا، لم أكن متأكدا إذا كنت قد تبولت على حذائي أو حتى على سروالي، ولكني في الحقيقة كنت غير مكترث.

وعدنا للجلوس إلى الطاولة، وكانت الحواجز بيننا قد زالت، وضحكنا، وانتابتنا حالة من المرح، أعتقد أنه في النهاية قمنا بالغناء سويا. هل مازلت تتذكر؟ بعدها سقطنا فوق الأريكة، وتبادلنا نكتتين أو ثلاثا، وقهقهنا، بعد ذلك أصبح الجو هادئا، ونمنا حتى وقت متأخر من الصباح. هل تسمع في الحقيقة ما أقول أم يجب أن أتكلم بصوت أعلى بسبب ضجيج ماكينات الحصاد؟

هل تتذكر الكلب الأول؟ هذا البوكسر، لقد قمت بإبعاده، رغم قيامك بضربه، كان من الصعب تربيته، ورفض إطاعتك، لقد خذلك، وفشلت كل المحاولات معه، لقد كدت تقتله. صحت: مع الكلب القادم لن يحدث معي نفس الشيء، أنا أريده جروا من مكان جيد لتربية الكلاب، وقمت بقراءة كتب ومجلات متخصصة، وجمعت المعلومات من الزملاء في النادي الرياضي لتربية الكلاب، وبعدها، أنا مازلت أتذكر جيدا، رغم مرور أكثر

مـن أربعين عاما، كان الجو خانقا، وطيور السـنونو كانت تحلق منخفضة، قالت الأم: سوف تهب عاصفة رعدية بالتأكيد، وعبر البحيرة تجمعت الغيوم. كان الجو قائظا مثل اليوم، وصحت أنا: خنافس شهر مايو. كلا، قلت أنت، إنها خنافس شهر يونيو، لكنها تشـبه خنافس مايـو، وأوضحت لي أنها صغيرة بعض الشـيء، وغالبا ما تظهر في شـهر يوليو. انظر هناك، سـرب بأكمله من الخنافس، هناك بجانب أشـجار الخمان، هناك، الآن سـقطت واحدة في طبق الحسـاء، صحت أنت غاضبا، يا لها من قذارة! وقمت بصيدها بالملعقة، لا، لا تلمسـها، سوف تستعيد عافيتها مرة أخرى.

وبالفعـل برزت مجسـات استشـعار الخنفسـاء خارجة من الحساء اللزج، وانفتح ظهرها المدرع، وخرجت منه أجنحتها مثل منديـل مبلل من الحرير، وقامت بفـرد الأجنحة، وأطلقت لعدة مـرات طنينا كطائرة ذات مراوح قبل الإقـلاع، والتصقت بقايا الحسـاء اللزج بساقها الصغيرة المليء بالشـعر، وفجأة وبتثاقل ارتفـع أزيزها وطـارت في الهـواء، طارت عدة أمتـار بارتفاع منخفض فوق الأرض ثم سقطت على العشب.

من المحتمل أنك نسيت ذلك المساء، فقد كان بالنسبة لك غير ذي أهمية.

في تمام الثامنة سوف نغادر، قلت أنت، وسنصل في التاسعة عنـد مُربي الكلاب، كي نحضر الكلب. في اتجاه رابيرزفيل كان المطـر يهطل بالفعل والسـماء مظلمة. وهنا لوّحـت الأم فجأة بذراعيهـا فـي الهواء، وصرخت: خنفسـاء في شـعري، وقعت الحشـرة على ظهرها فوق الطاولة، منفعلة ضربت الأم بالمنديل

فوقها، صحت أنت: اتركي هذا، إنه كائن حي. صرخت الأم: أنت عاطفي، وهوت مرة أخرى بالمنديل المطوي فوق الحشرة، اندفعت مادة سائلة صفراء من جسم الخنفساء الأسود، وتحركت أرجلها الصغيرة حائرة. اقتلي الحشـــرة تماما على الأقل، لا أحد يجعل مخلوقا يعاني، قلت أنت، وقمت بســـحق الحشـــرة بقبضة يدك المشـــدودة، فسقط كوب زجاجي، وتحولت الحشرة الصغيرة إلى هريس. يا له من شـــيء يثير الاشـــمئزاز، صاحـــت الأم، وألقت بالمنديل فوق الحشـــرة. لماذا كان يجب أن تكون دائما عنيفا؟ أما أنا فقمت برفع طرف المنديـــل إلى أعلى بحذر، ونظرت مفتونا، وفي ذات الوقت باشمئزاز إلى الحشرة المدهوسة. رجل الخنفساء الصغيـــرة كانت مازالت ترتعـــش، إن هذا فقط مجرد رد فعل لا إرادي، لقد ماتت الحشرة، ها أنت ترى أن الرأس مهروس، هكذا فسرت الأمر لي. أثناء ذلك صاحت الأم: لا تعملوا ضجة بسبب خنفســـاء. إنه كائن حي مثلنا، لكنكِ لا تريدين أبدا إدراك ذلك، أجبت أنت موبخا.

وفجـــأة تخيلت ماذا يخرج مني؟ مخـــاط أصفر اللون أم دم؟ أم شـــيء آخر؟.. وعلى نحو مفاجئ شـــعرت بالغثيان، أحسست بالاختنـــاق في حلقي، وتقيـــأت على المائدة، علـــى طبقي، على الخنفســـاء، وعلى صدرية الأم، ربما تتذكر ذلك الآن. ما هذا؟! صرخـــت أنت: يا له من عمل مقـــزز!.. هل رأيت ما فعلت؟! لقد أنهيت طعامك ســـريعا، لم تمضغه جيدا، رميته رميا في جوفك. أمـــا أنا فقد كان هنالك طعم مرٌّ في فمي، نظرت إلى ما تقيأته، ما زال من الممكن التعرف على كل شيء؛ البطاطس المقلية، قطع اللحم، بقايا الطماطم، كل شـــيء مخلوط ببعضه ولزج. قلت لي:

إذا كنت مازلت تشعر بالغثيان فلا ينبغي أن تركب معنا، لكن أنا أريد أن أحضر الكلب الصغير. تنهدت أنا وتقيأت في الحال مرة أخرى، لكن هذه المرة كمثل أحشاء الخنفساء! صرخت بأعلى صوتي، وقلت: أريد أن أذهب معكم. من يعرف؛ ربما يعاني الصغير من الحمى، وضعت يدك فوق جبهتي، كما كنت تفعل دائما أو عندما كنت تشك أن شيئا فيّ ليس على ما يرام.

إن حرارته مرتفعة! لكني أريد أن أذهب معكم! سوف نرى، قالت الأم مواسية، ليس لديه حمى، إنها فقط سخونة الجو، لقد كان كل هذا كثيرا بالنسبة له، لماذا تستثيره دائما بهذه الطريقة؟ لن يدخل السيارة معي، فقد يتقيأ مرة أخرى، على مقاعد السيارة. لكنك لا تجلب كلبا جديدا كل يوم، وفي النهاية فهي تجربة جديدة بالنسبة لطفل. بعد ذلك بنصف ساعة، ركبت معك وغادرنا، وهمست لي: تماسك ولا تتقيأ في السيارة. في الخارج، كان الظلام قد حل، وبدأت قطرات المطر الأولى تضرب زجاج السيارة الأمامي، وبعدها ظهرت ومضات برق، تلاها صوت رعد قوي قصير جاف.

قلت: لا تخف، نحن محميون داخل السيارة، وهناك تحويل للبرق. وتخيلت أنا، أن البرق ضرب السيارة، تخيلت كيف أن الأبواب، وكيف أن السقف، وكيف أن معدن السيارة كله توهج باللون الأحمر والأبيض. قمت بضم وسادة إلى جسدي، وظل البرق طوال الوقت يضيء داخل السيارة. بعدها مباشرة ضرب البرق ضربة قوية، وصحت أنت متحمسا : نحن الآن في وسط العاصفة، مباشرة بعد البرق بدأنا نسمع الرعد. قلت لي: لا تخف، لقد أخبرتك أننا محميون داخل السيارة. كيف انهمر

المطر كأنه دلاء من الماء؟! لم نستطع أن نرى شيئا تقريبا من السيارة، وكأننا كنا نسير تحت الماء!! بابا، أريد أن أتبول، تماسك، ولكن الوقت كان قد فات، لكن لا، بالذات فوق الوسادة، إنها هدية أمك في عيد ميلادي، وأعتقد أنه لا يمكن غسلها، كم كان ذلك صعبا، شيء يثير الاشمئزاز، كيف كانت رائحتها النتنة. أجل، لقد قلت إنه كان ينبغي عليك البقاء في البيت، ولكنكما تعرفان دائما أكثر مني.

الآن يا أبي العزيز، عليك أن تمسك نفسك جيدا، الآن يأتي الصعود الأول السهل، لا تحمل هما، أنا أرى بما فيه الكفاية، سوف أكون منتبها بسبب ماكينات الحصاد، إنها جميعا موجودة في الجزء الأسفل من الحقول، هل مازلت تتذكر؟ عند مُربي الكلاب، كانت الأرض ليّنة، صرخت: انتبه، إنك تلوث نفسك، كانت الكلاب تنبح، تعوي وتزمجر خلف سياج من السلك، قال مُربي الكلاب بفخر، لا أحد يمكنه دخول هذا المكان حيا، فما بالك بالخروج منه مرة أخرى، نحن نريد كلبا كهذا بالضبط، قلت أنت، كلبا للحراسة وليس كلبا للتدليل. أضاء مُربي الكلاب بكشاف النور داخل القفص: لقد وجدت ما تطلبه! ورأيت أنا من خلال شعاع الضوء، كيف أن كلبا يكشف عن أسنانه وآخر يعض في سلك القفص: هذه هي الأم، في القفص المجاور قفز كلب ضخم عاليا وألقى بنفسه على السياج: هذا هو الأب، لا أحد يمكنه الدخول إلى هذا المكان غيري، صدقني! انتظر لحظة. ذهب إلى القفص وعاد بجرو صغير، لونه خليط من الأسود والبني وذو حوافر كبيرة.

هذا هو الكلب المناسب لكم، وهذا هو التوقيت الملائم لفطامه: اسمه هارو فون فيلد باختوبل، كلب من سلالة ممتازة

ولن يخذلكم. وفي رحلة العودة إلى المنزل، سمحت لي بأن يجلس الجرو هارو علــى ركبتيّ، أنا مازلت أرى أمامي حتى الآن أنيابه البيضاء الكبيــرة مكتملة النمو، وعينيه الواســعتين وهو يحدق كالمجنــون. لكن فراء هارو كان ناعما للغاية، ولســانه الذي كان يلعــق به أصابعي كان دافئا، وبطنه الصغيرة كانت مازالت عارية تمامــا، هكذا تكون الحيوانات الصغيــرة، قلت أنت، دعه يجلس فــوق المفرش البلاســتيك، حتى لا يتبول علــى المقعد. تأكد من ذلك! أنا أعتمد عليك! لكن الوقت كان قد فات، لأنه تمدد قليلا واندفع البول قويــا، لقد قام هارو بالتبول في اتجاه ظهر المقعد الأمامي.

يائسا حاولت بالمنديل الورقي مسح ظهر المقعد. إن اسم هارو جميل، هل من الممكن أن يبيت هارو هذه الليلة في داخل المنزل؟ كلا، الكلــب مكانه بيت الكلب، ويجــب ألا يُدلل، لكن على الأقل الليلة الأولى؟

أبي، يجب عليّ أن ألتقط أنفاسي، إن الصعود كان أكثر إرهاقا ممــا تصورت. هل يعجبك الجو هنا في أعلى التل؟ كان المشــي دائما بالنســبة لك متعة كبيرة، إنك بالتأكيــد تفتقده كثيرا في الأوقات الأخيرة. في الماضي كنت تمشي كثيرا وبانتظام، وصرت مع تقدم العمر تمشي بانحناءة خفيفة وتجرّ قدميك، لكنك رغم ذلك كنت تمشــي بانتظام، وبشــكل لا يعرف الكلل كنت تســرع الخطــى، كلا، كلا، كنت تود إنجاز المســافة كلها دائما في نفس الوقت، بل في الآونة الأخيرة كان بإمكانك تســجيل رقم قياسي، قلت أنا لأصدقائي الذين شاهدوك وأنت تسير في الشارع، لقد بدا كبر السن عليك قليلا في الأوقات الأخيرة، أنا لم أرغب أبدا

في أن يصير أبي رجلا عجوزا، ضعيفا. كنت أريد أبا، أيضا في الكِبر، قويا، رائعا، متميزا، حاضر الذهن، مدهشا. الكلب مكانه بيت الكلب، كنت تصرّ على ذلك وترفض التدليل. إن الكلب يجب أن يعتاد على ذلك من أول يوم، إنه في النهاية حيوان، ويجب عدم أنسنة الحيوانات. لكن هارو كان يحب اللعب، كان يستلقي على ظهره، ويريد مداعبته في رقبته وصدره وبطنه العارية. لكنك بعد ذلك وضعته في بيت كبير خاص به، مطليّ باللون الأصفر وذي سقف أسود، ومليء بالقش الخشن والشائك. كان هارو لأول مرة ينفصل عن أمه، وظلّ يعوي طوال الليل، لكن اللعين لم يجد إليك طريقا. وعندما تسللت إلى غرفة نومكما وطرقت عليّ الباب، صحت قائلا: دعني أنم، إنه سوف يعتاد على ذلك. الكلب يجب من البداية أن تتم تربيته جيدا، والشيء الأهم في تربيته هو عدم تغيير الرأي، إما أن تصبح سيده ومعلمه وإما أن يفعل بك ما يشاء.

كانت المارة تصيح: أوه.. يا له من كلب لطيف! وكنت ترد بانفعال: من فضلكم لا تداعبوا الكلب. كنت تقول إن العلاقة به ينبغي ألا تكون حميمة، لكنك استثنيت الأطفال. وبعدها بدأت مرحلة الترويض، فصرت عضوا في نادي الكلاب المحلي، مباشرة من البداية كان التخصص رفيقك، وكنت تقول أنا لا أريد تكرار نفس المشكلات مع أنثى الكلب البوكسر، تلك الغبيّة. صباحا كل يوم أحد، وفي جميع ظروف الطقس، كنا نخرج مع الكلب، ليس هناك طقس غير ملائم، كنت تقول دائما، هناك فقط ملابس غير ملائمة. وكانت البداية، عاليا إلى بروج المند، وكان واضحا؛ هارو كان كلبا مطيعا منصاعا.

قال المدرب: عندما يكتمل نموه، سـيصبح حارسـا جيدا، فهو بطبيعته لديه رغبة كبيرة في الهجوم!

ورأيـت أنا كيف كان الكلب يقفز فـوق عوائق دائما ما ترتفع أثناء هطول المطر الشديد، وكيف كان يتغلب على حوائط التسلق، وكيف كان ينسـلّ من تحت العوارض! وكنت أنت تريد معطفا من الجلـد وقبعة للحمايـة من المطر. في البدايـة أخذت تلعب مع الكلـب الصغير، وكنت تقول، إنه مـازال جروا، وكان يتلقى منك مـن حين لآخر ضربة بجريدة مطوية. يجب ألا يرى الحيوان من الذي يضربه، حتى لا يخشـى الأيدي ويصيـر جبانا، فالعقوبة يجب أن تكون على نحو مفاجئ، لقد قمت بجمع معلومات دقيقة عن هذا الموضوع.

ذات يـوم، كان عليّ وحـدي أن أخرج مع الكلب للتنزه، نصف ساعة على الأقل. إن كلبا من نوع دوبرمان يحتاج إلى مكان للركض، وإلا فإنه يتعذب. نصف ساعة كاملة بالنسبة لي في ذلك الوقت، كانت وقتا طويلا للغاية، كنت أقوم بالمشـي، وأجلس فوق أريكة، وأقرأ مجلة ميكي ماوس صغيـرة، خبأتها داخل قميصي. صار الكلـب يكبر كل يوم، وغدا أكثر عدوانية، وكان يعض السلسـلة، ويهز رأسه يمينا ويسارا، عندما كنت أريد سحبها من فمه، وكأنه يدافع عن غنيمة. ولم يعد ينصاع لأوامري عندما أصرخ وأنا في حالة من اليأس: اجلـس! كان يقفز عليّ مزمجرا عندما أعطيه أمرا بالجلوس أو حين كنت أحاول إمسـاكه من سلسـلة الرقبة. وددت لـو كان لدي قدرة للسـيطرة عليه، لكن زمجرته أصبحت أعلـى صوتا وأكثر تهديدا، بالذات عندما كنت أطلب منه شـيئا أو عندمـا كنت أريد فرض رأيي، عدة مرات هاجمته كلاب أكبر

حجمـــا منه وقاموا بإصابته، فقط من خلال ذلك يمكنه أن يتعلم الدفاع عن نفسه، هذا أمر طبيعي، كنت تقول.

أمـــا أنـــا فكنت أعتقـــد أن دم الكلاب يختلـــف تماما عن دم الإنسان، فلونه داكن ويشبه لون القهوة، لكنها تحس نفس الآلام. هل تحس الكلاب بالألم؟ بالتأكيد، قلت أنت، ولكنها ليست بشرا بل حيوانات. لقد تعلم هارو الدفاع عن نفســـه، بعد أن كان يرقد مستسلما على ظهره، بل صار يعض في خواصر ورقاب الكلاب الذكور الأضخم حجما، وســـرعان مـــا أصبح معروفا على نطاق واســـع بأنه الكلب الذي يهابه الجميع. لقد كان يهزم كل الكلاب التـــي كانت تقاومه، إما أن يجبرها على الهرب وإما أن يطرحها أرضا، ويلقي بنفســـه فوقها مزمجرا أو مكشـــرا عن أنيابه. كل أصحـــاب الكلاب الأخرى كانوا يتجنبونـــه، فقط من حين لآخر كانت تحـــدث واقعة مع كلب من فصيلـــة الراعي الألماني أو من فصيلة الكلاب الشرسة روت فيلر، كان أبي يصيح عندئذ، فقط لا تتدخل، فـــإن لديها قوانينها الخاصـــة، فليس حتما أن يصل الأمر لمعركة بينها. إن هارو كلب يحب الســـيطرة، وعندما يحترم خصمه ذلك فلن يوجد أي عراك.

وقفـــت أنا خلف ظهرك في حالة ترقب وخوف بنبضات قلب تدق مسموعة وصفير في الأذن. صحت أنت، لم يتقرر أي شيء بعد، بينما ظل الكلبان يحومان حول بعضهما بســـيقان مستقيمة وبذيول مرفوعة، حينهـــا قلت لصاحب الكلب: هل ترى أن كلبك قد خضع واستســـلم، لا تقلق فلن يحدث شـــيء. لكن وفي هذه اللحظة، اشتبك الكلبان بأسنانهما، صرخ الأب، فقط لا تتدخل، وعلا صوت الزمجرة والعواء، وعلى نحو مفاجئ أصبحت المعركة

بينهما دموية. قام هارو بعض رقبة كلب الراعي الألماني الضخم، الذي سقط على الأرض، وتدخلت أنت وظللت تضرب هارو بمقود الكلب المصنوع من الجلد على فرائه ذي الشعر القصير، ضربات قوية، كان صوتها عاليا وكأنها طلقات مسدس. كل هذا لم يغير من الموقف شيئا، صرخ صاحب الكلب، إنه سيقتل كلبي، إنه وحش!

وبدأت أنت وصاحب الكلب في ضرب هارو بأقدامكما في خاصرته، لكن هارو لم يترك الكلب الآخر إلا حين أمسكت أنت بساقيه الخلفيتين وقمت بثنيهما ضد بعضهما البعض، حتى اضطر من الألم إلى فتح فكيه وترك الكلب المتأوه. صحت أنت مرة أخرى: سار الأمر على ما يرام. وأنت تجرّ هارو الملطخ بالدم قلت لصاحب الكلب حينها، كما أرى فإن إصابة كلبك ليست مهددة لحياته. كانت فاتورة الطبيب البيطري عالية، ولكن لحسن الحظ كان لدينا تأمين صحي على الكلب، وعندما بدأ هارو في قتل القطط، اضطررنا بعد أن قتل قطتنا، لجلب قطة ثانية. كنت من ناحية غاضبا ومن ناحية أخرى فخورا بذلك، وتقول إنه كلب حقيقي. بعدها بدأ هارو أيضا في الهجوم على الناس، وكنت تقول إن الناس الذين هجم عليهم، هم المخطئون! فمن يُظهر الخوف فإنه يريد أن يقول للكلب: أنت يمكنك أن تفعل معي ما تشاء، فلن أدافع عن نفسي. عليك المشي بشكل عادي وطبيعي، وبخطوات ثابتة، ليست سريعة، وليست بطيئة، كما لو أن الكلب ليس موجودا، عندها لا يهاجم الكلب أحدا. كنت تقول أخيرا إن الإنسان متفوق على الحيوان، والحيوان يعرف هذا بغريزته. لقد كان هارو كلب حراسة ممتازا، وكان يحصل على

مراكز متقدمة دائما في المسابقات، يكسب كل جائزة وكل كأس، ولم ينجح أحد في انتزاع أي شـــيء من فم هارو، يكفي أن تأمره بالجلــوس: اجلس. كان في اســـتطاعة هـــارو أن يمزق أي لص إربـــا إربا، يكفي الصياح: بكلمة أمســـك، كنت تقول أنا لا أنصح أي شـــخص بالاقتراب من منزلنا ليلا، إن أسرتي محمية، وكنت تتباهـــى بذلك. عندما يخرج ابني مـــع هارو للتنزه، فليس هناك ما يدعو للقلق، فكل مجرم أو خاطف يســـتطيع هارو تمزيقه في الحال، وأنا بالفعل لم أعد أخاف من المجرمين أو الخاطفين، إنما كنت أخاف من هارو، ومـــن زمجرته، ومن مواجهاته مع الكلاب الأخرى، ومن مواجهاته مع الناس الآخرين.

هل تشعر بالراحة يا أبي؟ هل تؤلمك حواف حقيبة الظهر في فخذيك؟ في ذات الوقت كان يحاول الابن المعاق أن يرفع نفســـه عاليا إلى حافة السرير، قبض على غطاء السرير الناعم، وشدّه من فوق جسد الأم فكشف عن ساقيها البيضاوين وركبتيها، وترك الغطاء ليســـقط من يده وهو في حالة من الفزع، وقام بمســـك سنادات جوانب الكرسي المتحرك، ليجذب نفسه عاليا، وضغط ســـاقيه في اتجاه السرير، وحاول بذراع واحدة مثل لاعب جمباز المتوازي أن يرفع نفســـه عاليا ومســـنودا على الكرسي المتحرك، والذي انزلق إلى الجانب رغم فرامله المشدودة، وأحدثت عجلاته الفارغة تقريبا من الهواء صريرا وطقطقة، وســـقط الابن بطوله فوق السرير على جسد الأم.

أحس بأنفاسها الدافئة، وبجسدها، وسمع صوت خشخشة فـــي حلقها مثل الشـــخير وكأنها حشـــرجة الموت. رأســـه فوق رأســـها، خده فوق خد الأم، مثل طفل صغير واللعاب يسيل من

فمه. قال في نفسه، فلتبق راقدا للحظة ولا تتحرك، ولتغص في الظلام فوق جسد الأم ولتغرق في سواد الأبدية، لكنه نهض ثانية وتحرك ببطء شديد في اتجاه حافة السرير، حتى تمكن من الانزلاق على الأرض مرة أخرى. كان البلاط باردا على جسده الساخن، عندما تمدد فوق الأرض وظهر العرق فوق جبينه وتقطّر في عينيه، بينما كان يلهث. حاول بكل قوته رفع جسده عاليا، وأسند يدا على الكرسي المتحرك والأخرى على حافة السرير، دون أن يفقد توازنه، وبحذر وببطء ضغط بذراعيه واستطاع الوقوف على أصابع قدميه، هذا جزء من المرض، هكذا قال طبيب العظام منذ أعوام، وأخيرا تمكن من الجلوس على الكرسي.

عليه أن ينادي طبيبا، يجب إحضار طبيب للأم. تحرك بكرسيه إلى النافذة، انحنى ببطء، ومدّ ذراعه وقام بتحريك يده فوق مقبض النافذة، وتمكن من الإمساك به. فتح النافذة وخرج صوته في الليل مناديا بخجل: مرحبا! ومرة أخرى بصوت أعلى: النجدة. وفي النهاية صرخ بأعلى صوت: النجدة! لم يسمعه أحد ولم يرد أحد. من بعيد سمع ضجيج ماكينة حصاد، يجب عليه الخروج إلى الشارع، يجب عليه المرور خلال ممشى الحديقة، وأن يتغلب على ذلك دون مساعدة خارجية. إنه لم يفعل ذلك أبدا في حياته حتى الآن، عليه أن يخرج من الباب عبر الدرج. إحدى يديه ممسكة بالسور المعدني والأخرى متكئة على عصا. عليه النجاح في ذلك، والنزول إلى مقدمة الكراج، وهناك يحاول أن يجعل الآخرين يرونه؛ أن يلوّح بذراعيه، أن يصرخ، ربما يراه أحد ويجلب النجدة ويحضر طبيبا، أو الإسعاف.

ومرة أخرى حاول رفـــع بنطاله وإدخال قدمه في فتحة رجل البنطال، نجح في ذلك واستطاع الإمساك به، ورفعه حتى الركبة، والجلوس وإدخال مؤخرته فيه ورفعه حتى بطنه، ثم قام بتحريك كرســـيه في اتجاه باب المنزل، أمســـك بعصاه ووضعها بالعرض فوق ســـنّادات جوانب الكرســـي المتحـــرك، كان عليه أن يتحرك بحرص، حتى لا تســـقط عصاه فوق الأرض. قال: يجب عليّ أن أذهب الآن يا أمي، ســـوف أجلب النجدة، وكل شيء سيكون على مـــا يرام، لا تخافي. وألقى نظرة خجولة على جســـد الأم نصف المكشـــوف، وسقط ضوء مصباح طاولة الســـرير على وجه الأم، وأضاء فمها المفتوح.

فأشـــاح بوجهه بعيدا حتى لا يرى ذلـــك، أُصيب بدوار وكان على وشـــك الانهيار. انحنى بصدره إلى الأمام محاولا أن يدس المفتـــاح في القفل. عندما يكون المفتاح موضوعا في قفل الباب، لا يتمكن اللصوص بســـهولة من الدخول إلى المسكن. كانت تقول الأم دائما، عندما يكون المفتاح موضوعا في قفل الباب، لا يمكن أيضـــا لفاتحة الأقفال أن تولج في ثقب القفل، لا تنس ذلك، لقد تذكـــر كلمات الأم بدقة. لكن كان عليـــه الآن أن يلفّ المفتاح في الباب بيد، ويُمسك مقبض الباب باليد الأخرى في نفس الوقت، وأن يجذبه نحوه حتى تدور الإسطوانة في القفل. كان محظوظا وفُتح الباب، والآن عليه أن يرجع قليلا بالكرسي إلى الخلف، وأن يدفع الباب ويعود للتحرك بالكرسي إلى العتبة. في الخارج كان الطقس دافئا، والهواء لم يصبح باردا جدا.

إنه لن يصاب بنزلة برد، حتى لو كانت الثياب ملتصقة بجسده، حتـــى لو كانت الأم تقول له دائما كن حذرا ولا تتعرض لتيار هواء

وأنت مبلل بالعرق، حتى لا تمرض. لم يسبق له أبدا في عمره الذي يبلــغ الأربعين عاما أن خرج من باب المنزل وحده دون مســاعدة. الآن كان عليــه أن يفعــل ذلك، فلا يمكنه أن يتــرك الأم وحدها هكذا، إنها فــي حاجة إلى العون، ربما كانت كل دقيقة ذات قيمة كبيرة. فكر لبرهة قصيرة كيف يمكنه التصرف على أفضل وجه؟

كان عليه أن يســند نفسه على الكرسي المتحرك، وأن يقبض باليد الأخــرى على الباب بقوة، وأن ينتبــه حتى لا يفقد توازنه مرة أخرى، فعليه أن يتحرك بالكرسي قريبا من الباب، وأن يشدّ مكابحه حتى يستند الباب إلى الحائط، غير أنه في الوقت الذي رفع نفسه من الكرسي المتحرك عاليا، كان الثقل الموازن صغيرا للغاية، فكان عليــه ألّا يجذب الباب ناحيته، وأن يبقى في وضع عمودي، وأن يفعل كل شيء من خلال قوة ذراعيه ويديه، عليه ألّا يشــد وإنما يضغط فقط، يسند كوعا على مقبض الباب والآخر على مقبض ذراع الكرســي المتحرك. بدأت عضلاته ترتجف من الإجهــاد، هذا الارتجاف الملعون، إنه يعرفه، كان يحسّ به أحيانا في ساقيه عندما يحملّهما أكثر من طاقتهما، كان يأمل ألا تتحول هــذه الرجفة إلى انقباض في عضلاته، لكنه اســتطاع الوقوف على قدميه وهو يترنح، وأمسك العصا بيده اليسرى واتكأ عليها.
أخي العزيز: كنت تلقي ذراعيك في الهواء وتصيح: الريح، الريح، عندما كنت تجلس في الحديقة، كانت الطاولة وكرســي الأطفال همــا عالمــك. أبدا، كم مرة ينبغي أن أقول لكــم ذلك، كانت الأم تقول، يجب ألا يضعه أحد منكم على كرسي قبل أن يكون هناك كرســي آخر خلفه كي لا يسقط، فمن الممكن أن يقع على مؤخرة رأســه، وهو أمر خطير في مثل حالته. مثل هؤلاء الأطفال يجب

ألا يتعرضوا لأشعة الشمس أيضا. من فضلكم، لو لم تصدقوني، فعليكم سؤال الأطباء في المستشـــفى وسوف يؤكدون ذلك لكم. في الواقع عندما يسأل أحد عنك فهو يسأل تلقائيا عن صحتك. كنت أعتبر الوجوه القلقة للســائلين هجوما شــخصيا عليّ، لقد تعلمت أن أتفادى الســؤال عن مســتقبلي الدراســي، لأنك كنت بمثابة الطابور الخامس بالنســبة لي، وكان مجرد السؤال عنك دائما يجعلني غير قادر على الدفاع عن نفسي. لم نتركك لحظة واحــدة بمفردك. هل أصابكم الجنون، طفــل مثل هذا لا يمكن تركه وحيــدا، فمن الممكن أن تقع حادثــة والصغير كما تعلمون عاجز. كل شيء كان يتم إحضاره لك، وكانت رغباتك التي يرونها في عينيك يتم تحقيقها على الفور، يجب ألا يفتقد شــيئا، ينبغي أن يحصل على كل شيء مثل الأطفال الآخرين.

أما كيف تريد ذلك، فلم نسألك هذا السؤال أبدا.

بصعوبة كنت تحافظ على توازنك عندما كنت تركب الدراجة ذات العجلات الثلاث، وقد قمت أنا بربط قدميك على الدواسات بأحزمة قديمة للتزحلق على الجليد. ماذا يحدث لو أنه سقط؟! كانــت الأم تقولهــا عندما كان يتم دفعك مــن الخلف وأنت فوق الدراجــة، كنــت تنجح في الســير والاندفاع إلى الأمــام، بينما كنت في نفس الوقت على وشــك الانزلاق من مقعدك دائما من الجانب. سوف يستطيع كل شيء مع الوقت، عليكم ألا تتسرعوا. هناك أطفال آخرون يمكنهم ركوب الدراجة ذات العجلات الثلاث ولكنهم ليسوا أكثر سعادة لهذا السبب.

دعه فــي حاله، حينها يدرك فقط مــاذا ينقصه، لكنك كنت تبدو سعيدا حين كنت تجلس إلى الطاولة الصغيرة في الحديقة

أو عندما كنت تطل من النافذة. فقط لا تشد الباب ناحيتك، قال الابن الأصغر في نفسه. يجب عليه أن يحافظ على توازنه، وأن يحترس حتى لا يدور حول نفسه مرة أخرى، كان يعرف ذلك، لأن كعبيه لا يلمسان الأرض، ولأنه يمشي على أصابع قدميه، كما قال طبيب العظام ذات يوم. رغم ذلك كان عليه أن يترك مقبض الباب للحظة، وهو محافظ على توازنه، وأن يمد يده إلى الأمام ويحاول الإمساك بالسور الحديدي. بدا لنفسه وكأنه رائد فضاء في الفضاء الخارجي وقد تحتم عليه ترك محطته الفضائية. لو لم يتمكن من الإمساك بالسور الحديدي فسوف يسقط من فوق سلالم الدرج وتتهشم عظامه، لكن عليه ألا يفكر في ذلك الآن. استدار مرة أخرى ورأى ساقي الأم على السرير، بينما قدماها العاريتان مرفوعتان في الهواء.. ترك يده، فأحس بالهواء في منخاريه وسمع نفسه ينفخ مثل حصان. انتابه الفزع وكان يود لو يهرب من الموقف، لكنه لم يستطع الحركة، أصابه الدوار وكان على وشك السقوط لكنه نجح في الإمساك بالسور الخشبي، وتشبث به بكل قوته.

مرة أخرى سمع صوت ضجيج ماكينة الحصاد. دق قلبه بقوة، وانسابت قطرات العرق إلى أسفل جسده. إنك تعرق مثل أبيك! كانت الأم تصيح دائما، والنساء لا يرغبن في الرجال الذين تفوح منهم رائحة العرق، عليك أن تتذكر أن العرق فيه شيء مبتذل، وعليك أن تتجنب المواقف التي يمكن فيها أن تبتل بالعرق.

كان ڤالتر يسير بشكل جيد، وتغلب على الارتفاع الخفيف دون صعوبات، ولم يلهث! هل مازلت تتذكر يا أبي؟ كان الكلب يطيع كل كلمة منك، وعندما كان يمتنع عن تنفيذ أمر لك، كنت

تشده من الجنب بالسلسلة شدة قوية، كنت أخشى دائما أن تنزع رأسه عن جسده. لساعات طويلة كنت تضع آثارا للكلب هارو، في الحقول المقصوصة، والمروج، وفي الغابات والأودية الضيقة العميقة، في خطوط مستقيمة، هنا وهناك، في تفرع الطرق يمينا ويسارا، كنت تقوم بعمل خدع له، وترمي أشياء وعليه أن يتعقبها ويبحث عنها ويعيدها إليك ثانية. شيء لا يمكن تصديقه تقريبا ما كان ينجزه هذا الحيوان!

نادرا ما فشل في تحقيق الهدف، من حين لآخر وعندما كانت توجد في الطريق آثار حيوانات برية، أو كان يرى فجأة ظبيا أو يشم رائحته، عندها لم يعد من الممكن السيطرة عليه، فكان ينطلق مندفعا خلف الحيوانات وهو ينبح، وفي كثير من المرات كان يقوم بتمزيق الظباء. لو أستطيع الإمساك به ذات يوم، فسوف أقوم بإطلاق الرصاص عليه وقتله دون سابق إنذار، كان يصيح حارس الغابة في غضب. أنا لا أنصحك بذلك! كنت تقوم بالصفير من خلال أصابعك، لكن عندما يكون الكلب بعيدا، كنت تحس بذوبان نفوذك، ويصبح عندها صفيرك دون تأثير. فيما بعد وعندما عاد هارو وهو يلهث ورغوة اللعاب حول فمه بينما كانت خاصرته ترتعش، أخذته من رباط الرقبة وقمت بمعاقبته بضربات قاسية، وفي النهاية كانت هناك تمارين لعقابه أدّاها وهو مغلول بالسلسلة.

ذات مرة رأيت هارو وقد انتابته حالة تمرد عليك، كان مزمجرا وحاول عضّ يدك، لكنك أمسكت به من رباط الرقبة، وأنت في حالة غضب شديد، وحالة انتصار، وكأنك كنت تنتظر مثل هذه اللحظة منذ زمن طويل، فقد قمت برفعه وقذفه في الهواء حتى

ســقط على الأرض. اعتقدت أنا للحظة أن الكلب قد مات، لكنه بدأ في اللهاث ونهض مرة أخرى واتجه إليك وبدأ في لعق يدك، فالكلاب تنحدر من ســلالة الذئــاب، كررت لي ذلك مرة أخرى، إمــا تكون أنت القائد وإما أن يكون هو، بإمكانك أنت وحدك أن تقرر ذلــك باعتبارك مالكا له. وخضع الكلــب لك أكثر من ذي قبل؛ لكن مطاردته للظباء ظلت مشكلة لم تُحل.

لمــح هارو ظبيا وهو علــى بعد ثلاثين أو أربعــين مترا منك، عندها لم يكن في الإمكان كبح جماحه، لأن غريزة الصيد كانت قد تغلبت عليه. رأيتُ كيــف أخرجك الغضب عن طورك حينها يا أبي؛ لقد دفعت بعقوباتك إلى آخر مدى، لم تســتطع أن تقتل الكلب، ربما كنت بهذا الحــادث قد وصلت إلى نقطة اللاعودة؟ ربما كان يتحتم عليك أن تجد له بديلا آخر؟ ربما تتخير ســلالة أخــرى من الكلاب تكون أكثر ملاءمــة؟ هل ارتكبت أخطاء عند تربيتــه؟ غير أن فكرة خطرت على ذهنــك فجأة: لماذا لا تهرب الأبقــار من المراعى؟ إن الســور الكهربي يمنعها، ذلك الســلك الرفيــع يكفي، مرة واحدة فقط تلمس الأبقار الســلك وتصيبها الصدمة، بعدها يصبح كل شــيء علــى ما يرام. وبدأت أنت في تطوير حاجز كهربي متحرك، واختفيت لعدة أسابيع في ورشتك داخل سرداب البيت. في البداية كان الجهاز كبيرا جدا، إنه يعوق حركة الحيوان. لقد أصبح أكثر ثقلا بعدها. وأخيرا عثرت على الحل الأنيق، كما ســمّيته حينذاك؛ وصار الجهاز يعمل بشــكل مثالــي، كان صغيرا وخفيفا ومن الممكــن تثبيته في رقبة الكلب دون أية مشــكلات. كان ذلك في بداية الخمســينيات، حيث لم تكن أجهزة التحكم عن بُعد متوفرة للشــراء في كل المتاجر بعد.

حتى مسافة ثلاثمئة متر كان الاستقبال في الجهاز ممكنا، ولمسة صغيرة كانت تتسبب في صدمة كهربية مؤثرة. لقد حدقت في عيني برهة قصيرة، كلا؛ إنك مازلت أصغر من أن تصبح فأر تجارب. سأجربه في نفسي أولا. في البداية كنت تريد أن تربطه ببساطة تامة حول الرقبة، ثم قلت: أريد أن أعرف بالضبط كيف يعمل، خطوة مقابل خطوة يجب أن يكون الاختبار، ثم حسمت الأمر بأن تحمله في يدك، وأصدرت إليّ تعليمات دقيقة كان عليّ أن أكررها بالترتيب الصحيح. لم أكن مستريحا تماما للأمر، لكنك أكدت لي أن شيئا لن يحدث، كانت الصعقة في الواقع قوية، لكنها لم تكن على أي حال مهددة للحياة.

كلا، أنا الذي سوف أتلقى الصدمة الكهربية، وليس أنت، تماسك، فقط معك جهاز الإرسال، إنه لأمر مضحك بالفعل، لا تكن أبلها! إن الجهاز في يدك يولد النبضات فحسب، أتفهم؟ النبضات فقط، هي أيضا كهربية بالفعل، لكن ليس لها أي تأثير على الإطلاق. لا تجعلني أجن، صحت أنت يائسا، لن تشعر مطلقا بأي شيء، إنني أضمن لك ذلك، لأن الصدمة الكهربية سوف تُثار عندي، كلا، لن أربطها حول رقبتي، يمكنني أيضا تجربتها على يديّ، كي أرى إذا ما كان اندفاع التيار الكهربي كافيا، عليك فقط أن تضغط للحظة قصيرة جدا على هذا الزر الأحمر، عليك أن تلمسه فقط، ولكن عندما أصل أنا إلى هناك على الربوة العالية بجوار شجرة التنوب.. لقد تحركت أنت بخطوات سريعة بعيدا عني، وأمسكت أنا بجهاز الإرسال بعيدا عن جسمي قدر الإمكان، أمسكته بيدي الممدودة، محاذرا كما لو كان قنبلة.

كان حجمــك يزداد ضآلة، وثقل جهاز الإرســال كان يضغط ذراعــي إلى الأســفل، ولأنه كان علــيّ أن أحمل الجهــاز باليد الأخــرى، صرت أقوم بتبديل اليد. انتابتني حالة من الاضطراب على الفور. مازال هناك عشــرون مترا وتصل إلى المكان المحدد، حيث توجد شــجرة التنوب، تمنيت أنك قصدت هذه الشــجرة، وليســت تلك الأبعد ناحية اليمــين، كلا، كلا، لقد كان صحيحا؛ فيداي كانتا ترتعشان بسبب الانفعال والإجهاد. وعلى مقربة كان الجهاز على وشــك الانزلاق والسقوط فوق العشب المبلل. والآن أغمض عينيّ وأضغط سريعا على الزر الأحمر، لقد قفزت أنت في الهواء، الزر صار لا يعمل، وسقطت أنت على الأرض وظللت راقدا للحظة، من المحتمل الآن أنني قتلت أبي، جال في خاطري ذلــك، لكنك نهضت ثانية ولوحت بذراعيك في الهواء: تعال هنا، ســمعتك من بعيد وأنت تصرخ، جريت نحــوك، هل جننت؟! ألا تفهم ماذا تعني: «اضغط قصيرا مرة واحدة»؟!

لقــد تعلّق الزر: صحتُ في المقابل مــن بعيد، غير أن الأوان كان قــد فات بالفعــل. ماذا؟! صحت أنــت وانحنيت كي تلتقط الجهاز، لقد تحولت «ماذا» إلى صراخ وإلى لعنات غاضبة، ومرة أخرى قفزت أنت في الهواء وتأرجحت ساقطا على الأرض، هل أنــت في الحقيقــة معتوه أم أنك تريــد أن تقتلني؟! فقط عليك أن تضغــط ضغطة قصيرة. لكن الزرّ تعطــل، أجبت أنا خائفا، وليس في اســتطاعتي عمل شيء. صحت أنت قائلا: آها! يجب الآن حلّ هذه المعضلة، وســيعمل الجهاز بشكل مثالي. كنت تلهث بعض الشيء في ذلك الوقت، لكنك كنت سعيدا. وقلتُ: أنا مقتنع أنني بهذا الجهاز ســوف أُعيد الكلــب إلى صوابه. وهذا بالفعل

ما حدث، لمسة واحدة قصيرة، وقفز هارو في الهواء ثم سقط على ساقيه إلى الخلف وظل ينبح ثم نهض مستعطفا. بعد ذلك صار يطيعك طاعة عمياء، وكأنك كنت تعطي الأوامر مباشرة إلى مخّه!

لقد استوعب هارو الدرس، فكان عندما يرى ظبيا من بعيد، يطوي ذيله إلى الوراء فورا وهو يئن. البعض في نادي الكلاب كان متحمسا، والبعض الآخر كان يرى في هذا التصرف تعذيبا للحيوانات، وكان ردُّك: إن هذا هراء، فالجهاز آدمي تماما، أفضل بكثير من الضرب، فليس جروح هناك على الأقل، وأنا مقتنع أن الجهاز سيحقق نجاحا كبيرا، هل مازلت تتذكر يا أبي؟ لقد قمت بتسجيل اختراعك، وكان حجم مبيعاته كبيرا، مازلت أتذكر ذلك بالضبط، وكنت دائما تقوم بتطويره، ووصلت به إلى أحدث مستوى من الناحية الفنية، والمسافة التي كان فيها الجهاز فعالا كانت دائما تكبر، صارت نصف كيلو متر، وبعدها صارت نحو كيلو متر كامل!

في ذلك الوقت قمت بتأسيس شركة، وفتح مكتب هندسي خاص بك، وقد أعدت بناء سرداب المنزل، وتم تجهيز ورشة، ثم قمت بتعلية المنزل وفتح مكاتب به..

دائما كان رجال يدخلون ويخرجون من منزلنا، واستطعت بيع الجهاز إلى الأرجنتين وبارجواي والبرازيل، حيث يتم استخدامه لتدريب الكلاب، وبخاصة في المزارع الكبيرة هناك. أيضا إلى دول أوروبا الشرقية كان تصديره سهلا، كنت دائما تقول: لقد قمت بتطوير هذا الجهاز للكلاب، وعندما يقومون باستعماله للسجناء، فهذا ليس من شأني، ولا يخصني الأمر.

كيف حالــك الآن يا أبي؟ ألا تريد الكلام بعد؟ ألا تســتطيع ذلك؟ لو شعرت باستياء، فعليك إعطائي إشارة بذلك، كأن تلمس رأســي بيــدك أو تضرب بقدمك خفيفا فــي جانبي. هل تحس بالجوع أو بالعطش؟ أو تريد قضاء الحاجة على وجه الســرعة؟ مــن فضلك دعني أعرف ذلك في وقت مبكر؟ ســوف نســتريح لفترة قصيرة فيما بعد وأنت في وضعك العالي متأرجحا تشــعر بالمتعة.

أليس كذلك؟ يا لها من ليلة، رائحة الصمغ تفوح من أشــجار التوب المقطوعة، شــيء رائع. لمدة ست سنوات كان هارو مطيعا للغاية، وقد فاز خمس مرات في مسابقات إقليمية وقومية ودولية بمركز ممتاز. مرة واحدة فقط حصل على جيد جدا، عندها قام هارو بعضّ خبير الاختبارات في ساقه، بعد ذلك بدأ هارو فجأة في مهاجمة الأطفال، فعندما هجم على ابن الجيران ذي الأعوام الســتة وأصابه في ساقه، كان الأمر بالنسبة لك واضحا: إنه لم يعد طبيعيا، إن الكلب أصبح مريضا وإلا فإنه لن يقوم بمهاجمة الأطفال.

سأطلق عليه النار وأقتله، عليك الذهاب إلى الطبيب البيطري، فلديه وســائل أخرى، قالت الأم. لا، إن الرجل يقتل كلبه بنفسه، لكنك لا تســتطيع أن تفعل ذلك في الحديقة، والجيران ســوف يسمعون طلقة الرصاص! كنت ترد قائلا، لا توجد أي مشكلة. ثم قمت بتركيب كاتم الصوت بحركات مدربة فوق مسدسك الخاص ماركة ڤالتر ب. ب. ك، وأحضرت قطعة سجق من الثلاجة، بعد ذلــك قمت بالصفير من خلال أصابعــك مرة واحدة، وقلت لي: اذهب إلى الناحية الأخرى من المنزل، فلا ينبغي أن ترى شــيئا،

وعندما عدت كان وجهك شاحبا، وقلت انتهى الأمر، نستطيع الآن إحضار جامع الحيوانات الميتة.

أخي العزيز: كل شيء كنت تحاكيه في عالمك الصغير. بعد نزهة على البحيرة، أحضروا لك حوضا من البلاستيك مليئا بالماء فوق الطاولة، وكنت تضرب وتلعب في الماء. صاحت الأم بحماس: انظروا إليه، كيف يتمتع بمزاج طيب! قال الأب متذمرا: أنا لا يمكنني فعل شيء، وهذا المشهد يثير الكآبة في نفسي. هذا هراء، قالت الأم، ألا ترون وجهه السعيد؟! من المعاقين بالذات يمكن أن يتعلم الأصحاء شيئا!

أعتقد أنك كنت تشعر في ذلك الوقت بالرضا، حتى إنك ربما كنت سعيدا في عالمك. بحركات طائشة كنت تضرب على الماء في الحوض. ينبغي عدم تركه ولو ثانية واحدة بعيدا عن أعيننا، ولو ثانية واحدة، حتى لو كان عمق الماء عشرة سنتيمترات، يجب ألا يخاف، فهذا من شأنه أن يكون ضارا. رغم ذلك فقد تدربنا سويا على الغطس. بعد عدة محاولات فاشلة كنت تستطيع إغلاق الفم في اللحظة المناسبة. ذات مرة كنت تتنفس عن طريق الأنف، ولفت تأوهك انتباه الأم، قلت أنا: ذبابة خيل كبيرة أفزعته. قالت الأم: إن رأسه مبللة، والآن يكفي هذا. وجلست أنت في حالة دفء، محميا من كل نفحة هواء، ملفوفا ومغطى بفوطة استحمام، في الشمس، بمنديل قماش معقود من كل الزوايا.

نعم، يا أبي العزيز، من حسن الحظ أني لم أكن كلبك، من حسن الحظ أني كنت ابنك، ابنك الذي كان يحبك.. من تحبّه أكثر، كان رفاقي في المدرسة يسألون: أمك أم أباك؟ أنا أحبهما

على حد سواء. نعم، لم تكن أبا غير مبال. ذات شتاء ربما كان عمري حينئذ أربع سنوات أو خمسا، وكان الثلج يتساقط دون توقف، وكان ارتفاع هذه الفخامة البيضاء يصل للركبة، ونحن الأطفال كنا نحاول بناء بيت من الثلج، وبالفعل قمنا بعمل كومة كبيرة من الثلج بمعاولنا الصغيرة، وعندما أردنا عمل فجوة بها إذا بها تنهار، وأخيرا استطعنا عمل تجويف، لكن مساحته كانت صغيرة، بحيث لا يسمح إلا بوجود طفل واحد فقط وهو منكمش، وعندما عدت أنت من العمل إلى المنزل، وعدتنا بأن تبني لنا قلعة حقيقية في يوم السبت التالي، إذا ما استمر بقاء الثلج، ومن النافذة في الصباح نظرت وكنت قلقا، لقد تساقطت الثلوج مرة أخرى أثناء الليل.

فورا عقب الإفطار بدأ العمل، وفي تلك الأثناء تجمع عدد من الأطفال الأكبر سنا، وقلت لنا سوف نبني وفقا لطريقة شعوب الأسكيمو، فهم يقومون بمعاولهم بعمل طوب من الثلج ويضعونه طبقة فوق أخرى، سنبني بنفس الأسلوب، لكننا لن نقوم ببناء أكواخ الأسكيمو والتي هي على شكل قبة، بل سوف نشيد قلعة حقيقية من الثلج ذات بنايات مختلفة. بعض الأطفال قاموا بتجهيز الطوب الثلجي، وآخرون قاموا برصّها طبقات فوق بعض وفقا لتعليماتك. كنت أنت المهندس المعماري وكبير العمال والمساعد في نفس الوقت. في البداية كان هناك غرفة أو غرفتان، ثم توالت غرف أخرى. ولفترة وجيزة جدا تراجعت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، وبعض الأطفال أحضروا دلاء مليئة بالماء الساخن كي نتمكن من تجميد القلعة، لقد كنا نعمل بهذا المبنى العملاق وكأننا نحاتون.

وفي النهاية يا أبي العزيز، عندما قمت بتشييد برجين آخرين بســلالم منحوتة من الثلج يمكن الصعود عليها بالفعل، وعندما انتهينا؛ وكأول الصاعدين على هذا الدرج؛ فقد تمكنت من نحت علــم في جدار القلعــة، عندئذ أيقنت أن حلمــي قد تحول إلى حقيقة، وجلســنا في المســاء منهكين حقيقة، وفي المســاء؛ في الحجرات المضاءة بالشــموع جلسنا نتناول عشاءنا، وقد تملكتنا حالة من النشــوة؛ حتى إن بعض الأطفــال، كانوا يريدون قضاء الليــل في القلعة. أنا لم أعد أتذكر ما إذا كنت قد ســمحت لهم بذلــك، أم لا؟.. لقد نجحت في ذلك الوقت يا أبي العزيز في أن تســحرني، تسحرني على أرض الواقع! هل ترى يا أبي أن الغابة ليست مظلمة تماما، فالطريق في الليل أيضا يمتد بين الأشجار وكأنه شــريط مضيء. نحن نســير في الطريق الصحيح، فالآن صار الوادي الضيق خلفنــا، وبعدها توجد بعض الحقول، وآخر صعود لنا ســيكون بعد ذلك. وقريبا جدا منا، كان الابن الأصغر المعاق قد ســقط على الأرض، فوق آخر درجة من الســلم الذي يقــود إلى المنزل، لقــد فقد توازنه ودار حول نفســه ووقع على الأرض. وكان كوعــه وفخذه الأيمن يؤلمانه، لكن لم تكن هناك أي كسور.

والآن كان عليه أن يمد يده ويمســك بالعصا، التي كانت تبعد عنه بعض الشــيء. لقد ضغط عليها بذراعه في اتجاه جســده، وبقدميه تجاه إحدى درجات الســلم حتــى لا تنزلق إلى الجانب عندما يرفع نفسه عاليا وممسكا بكلتا يديه بالسور. كانت ركبتاه مضغوطتــين مــن جرّاء توتــر عضلاته، وكاد يفقــد توازنه مرة أخرى، لكنه تمكن من النهوض، بعد ذلك كان عليه أن يســير في

ممشى الحديقة إلى سلالم الدرج التالية. إنه يمشي بطريقته الخاصة، وساقاه منفرجتان ومثنيتان بعض الشيء، ويجر قدميه على الأرض، بينما كان حذاؤه في الجانب والمقدمة مهترئا.

من حين لآخر كان يبقى عالقا في أحد أجزاء البلاط المرتفعة بعض الشيء، لكنه تقدم إلى الأمام بشكل جيد واقترب من الدرج. كان يشعر طوال الوقت بقلق غريب كلما ابتعد عن البيت، كان هذا الخوف يُسرع من دقات قلبه. يحس أنه يمشي فوق أرض مبلولة طرية، والآن لم يعد يخشى شيئا، إنه يريد فقط إحضار النجدة لأمه، وحاول وضع قدمه اليسرى فوق درجة السلم التالية، ولكن حذاءه انزلق وبدأت ساقاه في الاهتزاز من الإجهاد، وكان عليه أن ينتظر لحظة، أن يستريح، وإلا فإنه لن يستطيع السيطرة على عضلاته، وسوف يفشل الجسد فجأة في إكمال مهمته.

صرخ: النجدة! لكن صوته لم يصل بعيدا، فقد بح رنينه بعض الشيء من جراء الإنهاك، تنحنح وصرخ من جديد، لكن هذه المرة بصوت أقل حدة. وبحرص حاول مرة أخرى أن يضع القدم اليسرى فوق درجة السلم التالية للهبوط، وأن يجر القدم اليمنى دون أن يفقد وقفته، ولكي يستطيع فعل ذلك كان عليه أن يقبض وعلى مسافة صحيحة بكلتا يديه وبقوة على السور. لقد نجح في النزول درجة من السلم.

هل تسمع؟ قال ڤالتر لأبيه، إنها بومة صغيرة، نسمع صياحها رغم ضوضاء ماكينات الحصاد، لماذا لم تعد في الحقيقة تتكلم يا أبي؟ لقد كان ذلك يحدث في الماضي أيضا، عندما تكون لسبب ما مستاء، كنت لا تتحدث معي لأيام وربما لأسابيع طويلة. كان يجب عليّ أن أقدم لك اعتذاري رسميا، كنت غالبا ما أشعر

بالذل في ذلك الوقت. طالما كنت صغيرا، لم أطق السكوت، وكان عليّ أن أخضع، لأني كنت في حاجة للاتصال بك.

لكن وبمرور الزمن بدأت تحمُّل السكوت، فقد تدربت عليه، وكنت في كل مرة أحقق رقما قياسيا قبل أن أستسلم وأخضع لك. في الوقت الذي كنت به في المدرسة الثانوية، قاسيت لأسابيع وشهور طويلة، وجعلت من هذا الشأن رياضة خاصة بي، وخلقت حيزا شاسعا لنفسي، ولم أعد أحس بأنني مذنب. في بعض الأحيان كنت أقوم بإبلاغ الأم خاصة تقديرات اختباراتي الرديئة بصوت عال، حتى تستطيع أنت أيضا أن تسمعها، وكنت أحس بالانتصار في كل مرة، عندما لا تتمكن من السيطرة على غضبك، كنت تصرخ: هل أنت في الحقيقة غبيٌّ أم أنك تتصنع ذلك فحسب؟ وكنت أجيب: كلاهما، إن هذا في الواقع هو أسوأ شيء.

لكن منذ متى نتحدث معا ثانية؟ على حد علمي أنا لم أعتذر لك بعد! لكن الحساب بيننا جاء لاحقا. كان الوضع يتأزم دائما، وصار غضبي السريع مساويا لغضبك، وأصبحت عُرضة للجُرح مثلك تماما، في نفس الوقت الذي نمت فيه قواي الجسمانية، لكنني كنت أريد أن أكون مختلفا عنك بالمرة. مهما يكن فلم أرد أن أكون عقلانيا، أو مهندسا باردا، إنما كنت أريد أن أكون فنانا، وقبل كل شيء عاشقا حنونا لا يشبع. لكني في الواقع كنت فاشلا في المدرسة وشخصا أحمق. وذات مساء حدث ذلك؛ كنا نتحدث عن أخي، كنت تريد إيداعه في مدرسة داخلية، وتقول إن ذلك بالنسبة له هو الأفضل كي يمكنه الاستقلال عن الأم، والاعتماد على نفسه، لكني كنت أعارض ذلك. من يا ترى كان على حق؟

اليوم أعتقد أنني لم أكن مقتنعا بما حدث، فقد حاولت في ذلك الوقت التأثير على رأيــك وتغييره، وحاولت إقناعك بقوة، لكنك كنت تقول: لا نقاش، وكنت تُنهي كل حديث بيننا، أنا الذي يقرر، فأنا المسؤول التربوي وليس أنت، لأنني في النهاية أنا الأب.

لم تعطني إجابة، كنت في ذلك الوقت في الثانية والعشــرين من عمــري، وأنت في منتصف الخمســينات، وقد قبضت على جريدة«نويا زيورخر تسايتونج»، وأخذت تفاحة من طبق الفاكهة، وخرجــت إلى الشــارع مع الكلب، خليفة هــارو. في هذا الوقت بــدأ العــد التنازلي، كنت أحس أن في داخلي قنبلة على وشــك الانفجار، وقمت بملاحقتك في الشارع. اليوم لن أستسلم، اليوم سوف أجبرك على الكلام معي، إن معي الحق في الحصول على ردّ منك، أنا لا أريد أن يكون أخي إنســانا تعيسا، وأن يعيش في عذاب كل يوم في المدرســة الداخلية، وأن يعاني من التواءات لا تُطــاق حتى يرتــدي المعطف، وأن يصبح مبلــلا من العرق حتى يدخــل في البنطال، وأن يربط الحزام حول وســطه. كلا، أنا لا أريد ذلك، ينبغي الاستمرار في معاملته كالأمير الصغير، أنا أتفق مع رأي الأم، وكنت تطوي الجريدة بطريقة تســمح لك بقراءتها وأنت تمشــي، لقد قمت بقضم التفاحة بحماس، وأكملت سيرك دون الالتفــات إليّ، لكنني قمت بالجري خلفك وصحت: ســوف أجبرك على الكلام معي، صدقني.

وشــعرت حينها بخفقات قلبي القوية السريعة وصوتي الذي أصبــح غليظا من جرّاء الانفعال. لكنك لــم تنطق بكلمة وقمت بطيّ الجريدة من جديد كي تســتطيع تكملــة قراءة المقال الذي بدأته، وســرت في طريقك غير مكتــرث. أصاب الفزع امرأتين

من المارة فابتعدتا عن طريقنا، صرخت فيك، وقمت بتوبيخك، لكن كل ذلك كان دون جدوى، ولم يأت رد فعل من جانبك، وخشيت فعلا من الفشل، وكان عليّ الاستسلام. وفكرت في طريقة جديدة، فقد كنت أعرف عنك أنك تصبح سريع الغضب لو قام شخص بلمسك أو دفعك بعض الشيء، وكنت تقول ذلك مرارا، حينها يكون رد فعلك قويا، وكأن هذا الشيء يوجد داخلك بصورة غريزية أو بالفطرة. عندها قمت بدفعك خفيفا في الكتف، فصار وجهك شاحبا، ورجعت بيدك اليمنى إلى الوراء استعدادا لتوجيه ضربة، وأخذت وضع الهجوم مثل ملاكم، وقمت بالتحديق فيّ بعيون صغيرة محتقنة بالدم! وقلت أنت: مرة أخرى سوف أقوم بضربك! وكنت أنا مستعدا وصحت: تستطيع فعل ذلك ولكني سأرد! ظللنا لثوان معدودات يحدق كل منا في الآخر. وتركت يدك لتعود إلى وضعها الطبيعي، ومتنفسا بصعوبة قمت بثني جريدة«نويا زيورخر تسايتونج» بقوة وقد كنت تقبض عليها، وألقيت بالتفاحة بعيدا.. بعد ذلك ولفترة زمنية طويلة كان كلّ منا يتجنب الآخر، ولعدة أشهر لم يتحدث أحدنا مع الآخر. أما الآن يا أبي فقد أصبحت تحت سطوتي، أستطيع الآن تحطيمك فقد صرت عاجزا، ولا أحتاج الكثير حتى أبثّ في نفسك الخوف والفزع، وستنظر إليّ بعيون يملؤها الرجاء، أيها الكائن اليائس!

إنك الآن تتململ فوق ظهري كدمية متحركة، بعد أن صرت بائسا. كنت تخشى طوال حياتك ذلك اليوم وتقول: لا ينبغي أبدا أن تفقد السيطرة على نفسك، إياك أن تصبح عاجزا أو مغلوبا على أمرك، هل أقوم برميك على الطريق السريع مثل كلب، تركته العائلة وذهبت لقضاء عطلة؟ أو ألقيك في صندوق القمامة مثل

طفل غيــر مرغوب فيه؟ هل أقوم بتخليصك من حياتك وطعنك بسكين الجيب الذي تحمله؟ أم أُطلق عليك رصاصة الرحمة من مسدســك ماركة ڤالتر ب. ب. ك؟ فكاتم الصوت ســوف يجعل الدويّ غير مســموع، بعدها يمكنني دفنــك دون أن يدري أحد. لا تخش شــيئا يا أبي العزيز، نحن نســتمر في السير ولا شيء ولا أحد يســتطيع أن يوقفنا. سنكمل ســيرنا في الليل، ونصعد إلــى الجبل، إلى بيت عطلة نهاية الأســبوع. هل تريد أن تقنعني بأنك كنت تكســب الكثير من المال في مجال الأدوات الكهربائية من خلال عقود قانونية؟ والمكالمات التليفونية الكثيرة الغامضة؟ غالبا ما كنت أستيقظ في الليل مذعورا، وأيضا في النهار كانت الاتصــالات الهاتفيــة لا تنقطع، وعندما كنــت أرد كانت المكالمة تنقطع. ظنت الأم أن لديك عشيقة، وكنت ترد، هذا هراء، فليس لديّ وقت لمثل هذه الأمور.

لكن في الواقع كان هناك ما يحدث. بأي نوع من أنواع الأبحاث كنــت تقوم فــي الحقيقة؟ ومــاذا كانت تحتوي هــذه الصناديق المعدنية الملحومة التي كان يتم نقلها للمنزل في شاحنات مبردة؟ هذه الشــاحنات كانت تحمل لوحات معدنية أجنبية، من بلغاريا ومن تشيكوسلوفاكيا ومرارا من بارجواي والأرجنتين. وماذا كان نــوع هذه العقود؟ حتى وقــت متأخر من الليــل كنت تعمل أنت وصديقك الطبيب، طبيب الأشــعة، أنــت لا يمكنك إنكار ذلك، وفي كثير من الأحيان كان يقضــي الليل في منزلنا، وكنا نتناول طعام الإفطار معا، لــم تكن الأم غير مبالية عندما كان يغازلها. فســلوكه كان أكثر منك رقة! لقد كان هذا حقيقيا. فكان يشرب القهــوة الباردة في فترات الراحة القصيرة، عندما كنتما تعودان

مــن المعمــل، ولا يرميها في جوفه على مرتــين، كما كنت تفعل، كان يمسك الفنجان بإصبعين من المقبض، ويمدح النكهة الرائعة للقهوة ويحتســيها بهدوء. رجل مهــذب، كانت الأم تقول، وكانت معجبــة به، وقمت بالانفصال عنه في وقت لاحق لهذا الســبب. فــذات مرة قمت بضبطهما معا. كان ينبغي أن تطير إلى بوينس آيرس، ونسيت جواز سفرك في البيت، وقمت بمباغتتهما، وهما يرقصان رقصة فالس لفرانز ليهار فوق الأرضية الخشبية، وكانا يحضنان بعضهما.. موسيقى ليهار كنت تبغضها كثيرا.

لقــد لكمت صديقك في وجهــه، عرفت ذلك لاحقا من أمي، لم يدافع عن نفســه رغم نزيف أنفه، وقمــت بطرده من المنزل. وانتهى الأمر بالنســبة لــك بهذه النهاية، لقــد كان يخاف منك كثيرا، ولذلك لم يستطع إقامة علاقة مع الأم. صديقك الطبيب مات ميتة غريبة فيما بعد، قيل إنه جادث في جبال الأنديز، لكن بقي الأمر غامضا إذا مــا كان قد مات مقتولا. ما نوع التجارب التي كنتما تقومان بها في القبو؟ كنت أســمع في بعض الأحيان صريــرا أو ضجة، أم أن ذلك كان فقط مجرد تهيُّؤات؟ هل كنت تقــوم بإصلاح أجهــزة الراديو الجديدة؟ أم كنــت تعمل لتطوير ماكينات المطبخ؟ لكن لماذا كانت تفوح هناك رائحة نتنة لســمك ميت؟ لماذا كنت أجد ســمندر المــاء المُعدّ في الأوعية الزجاجية؟ ألم يكن بعضها له رأســان؟ أم كان ذلــك مجرد خدعة بصرية، ففي المياه العكرة لم أستطع النظر بصورة صحيحة؟

فيما بعد أردت تعليمي قوانين مندل وكأنها تعاليمك الكنسية، وكأنك قمت باكتشــاف معادلات لحل لغز العالم، لكن وعلى نحو مفاجــئ بدأ الانحدار، فبعد النزاع البغيض مع زميلك في العمل

وصديقك، لم تعد نفس الإنسان، أحسست بأن الحياة قد خانتك وأيضا نجاحاتك المهنية باءت بالفشل، والشاحنات لم تعد تنقل منتجاتك إلا نادرا، والمكالمات الهاتفية في الليل صارت قليلة، وسرعان ما توقفت. وفجأة أصبحت مريضا، وأصبت بمرض تتكس الأقراص الفقرية، وكنت تصرخ من الألم، وتتلوى على الأرض، وتمد ساقيك وتقلب الطاولة. وعندما كانت نوبة تقلص الأعصاب تفاجئك تفقد صوابك، كنت تضرب بعنف على الجدران بيديك حتى تدمى وتصيح: أنا لا أتمنى ذلك حتى لأسوأ أعدائي.

كان عمرك في ذلك الوقت يربو قليلا على الأربعين، أزمة منتصف العمر، كما كنا سنطلق عليها اليوم، لكنها في حالتك خاصة تركت فيك أثرا كبيرا، وأصبحت حياتك كلها مهددة. من الذي سيتولى إدارة الشركة؟ واضطررنا في وقت لاحق إلى بيع السيارة والبيت. وانتهت حياتنا الجميلة، سأصبح مقعدا عاجزا، كنت تقول إنكم لا تدرون ماذا يعني ذلك لرجل مثلي، أنا لا أريد أن تستمر حياتي هكذا، بهذا الشكل لا أريد أن أعيش، أن أقتل نفسي بالرصاص أفضل لي.

هل كنت تسمعني طوال الوقت؟ هل مازلت تتذكر كل هذه الأمور؟ بعد ذلك تعلق الأمر بالسؤال ما إذا كنت ستُقدم على إجراء عملية جراحية؟ كنت تصرخ قائلا، إن هذا أمر خطير للغاية، لا أريد أن يقترب أحد مني بمبضع الجراح.

ثم قمت بالبحث عن طبيب يعالج بالمداواة الطبيعية، وكنت تجرّ نفسك إلى التاكسي، وتبدو مثل أحدب نوتردام، وتتجه إلى منطقة إبينتسيلشا. أنت، بالذات أنت من كان ضدّ مثل هذه المعالجات الفاشلة، وكنت لا تؤمن إلا بالمنهج العلمي على نحو

جــازم. كنت تترك نفســك كي يلفّوك في أحزمــة دافئة، وكانوا يضعون لك قائمة خاصة بالطعام: على أي حال أنا لا أريد نبيذا أبيض أو أي شراب مسكر فإن ذلك ينبه الأعصاب بشكل مفرط. وقد بدت هذه العلاجات ناجحة، رغم الانتكاسات القليلة، والتي كان يتم علاجها وتزول الأزمة الصحية. إنه عبقري، هذا الطبيب، وقمت بتبجيله وفيما بعد كنت تلتزم بنصائحه. قبل كل شــيء لا تتعرض لتيار هوائي، تيار الهواء هو أســوأ من كل شيء، وعدت متمتعا بصحتك مرة أخرى، وقمت بمباشرة أعمالك وتوقفت عن التدخين.

لكن بدا أنك قد تغيرت، وأن الثقة الأساســية في داخلك قد اهتزت. وضربات القدر قد تركت آثارها عليك، وأصبحت بعض الشيء غير مكترث بالحياة، وعلا كرشك قليلا، وزاد وزنك أيضا، وصرت عنيدا. ماذا حدث لك في ذلك الوقت؟ هل كان ذلك فقط داء تنكّس الأقراص الفقرية؟ كنت تريد حتما طفلا ثانيا! كان عمر الأم حينها يزيد على الأربعين، وكانت قد عانت من حالة إجهاض تلقائي في البداية، وفي المرة الثانية، تم الحمل، ونزل الجنين في شهره السابع. كانت بهجتك تثير المشاعر، أنا مازلت أتذكر ذلك جيدا، ثم أصبحت إعاقته واضحة، واضحة بشكل بارز، حتى إن الصغير لم يمكنه المشــي أبدا. في ذلــك الوقت تم التخلص من كل أحواض الســمك، وتكاثرت الشجيرات في الحديقة ولم تجد من يقطعها، ونما العشب وتفشّــت الأعشاب الضارة، وتشابكت فــروع التوت البري بعضها في بعض على الشــجيرات المتكاثرة، وبدأ طلاء إطار النوافذ في التشــقق والتقشر. ماذا كان يحدث يا أبي؟ هل كنت قد خسرت المعركة ضد الحياة في ذلك الوقت؟

علــى مقربة منا، وفي كراج، تســلق حيــوان ابن عرس طويل الذيل إلى مكان محرك ســيارة جيب شــيروكي، وبدأ يشم بأنفه الصغير الرطب الأســلاك المختلفة المغطاة بالبلاســتيك، وقام بالتسلق من موزع محرك السيارة إلى الكارباراتير وضغط جسمه ليسقط حيث توجد أســلاك الفرامل، وبدأ في قرضها والعضّ فيها بحماس. أما صاحب السيارة فكان يجلس في غرفة المعيشة المظلمــة، متأملا من خلال النافذة في مناظر الطبيعة ليلا. كان يسمع ماكينات الحصاد، ويرى كيف أن نور أحد الكشافات يضل طريقه إلى غرفته؛ ويضيء أحد الأباريق المصنوعة من القصدير فوق المدفأة.

وعلى بعد عدد قليل من المنازل، كان ڤالتر وأبوه يســتطيعان ســماع الضوضاء لو لم يحجب هدير محركات ماكينات الحصاد كل صوت آخر.

وبعد عــدة منازل، كان هناك حفلة عيــد ميلاد، وكان هناك رقص في غرفة المعيشة، وشرب البعض الكثير من الخمر، وكانت النوافــذ مفتوحة على مصاريعها، وتجمعت مجموعة صغيرة من الناس في الشرفة.

أخي العزيز: لم تُمنح لك إمكانية الكذب، ولم يكن في إمكانك مثلي أن تنقذ نفســك بتصويبات صغيرة، لم يبق لك في صدقك إلا الهجــرة إلــى الداخل. صار كل أفراد الأســرة مراقبين لك. اسحب ســاقيك، لا تســتند هكذا إلى الوراء أو العكس: اتركوه وشــأنه، لا تســمعوا كلام الآخريــن! كل إثارة تلقائيــة كان يتم إبعادهــا عنك. كنا جميعــا نتمنى لك الأفضــل، كنا فقط نريد أن تصيــر طبيعيا بقدر الإمكان. كانت الأصوات العالية تزعجك

بشـــكل كبير، رغم ذلك صرنا معروفين في المنطقة بأننا العائلة الأعلـــى صوتا، فكان كلامنا العـــادي صراخا، لا تتحدث بصوت عال، كانت الأم تقول للأب والأب يقول للأم. مناقشـــاتنا تتحول بســـهولة إلى صراخ، أنا والأب، بينمـــا كنت تجلس على طاولتك متوترا وملتفتـــا بوجهك بعيدا. أمرٌ غريب أن يكون بهذا الهدوء، رغم أنه ينتمي لنفس الأســـرة! فليس لديـــه نفس المزاج الحاد، ويمكن فعل كل شـــيء مع مثل هذا الشـــخص، إنه لا يقاوم على الإطـــلاق ولا يملك إرادة خاصة به، فهذا أمرٌ غير مفهوم، وليس له علاقة بالإعاقة، كان يقول ڤالتر في نفسه: هل مازلت يا أخي تتذكر الساعات التي كنت تؤدي فيها التمارين في الحديقة؟ ذات مرة قمت برفع كلا العكازين عاليا، وبقيت أنا أعد، كم من الوقت تســـتطيع حفظ توازنك من دونهما؟ ثم كانت هذه النزهات سيرا على الأقدام على الطرق بين الحقول أكثر من مئة متر أو مئتين؟ أحيانا كنا نشـــعر بالرضا والصفاء، لكني لم أستطع أن أفهم في ذلك الوقت لماذا رغم كل مجهوداتي، لم تتحسن حالتك سريعا؟! وعندما عدنا إلى البيت، لمســـت الأم رأســـك وصاحت: يا إلهي، إن شـــعره مبتل، لقد أجهد نفسه كثيرا. ودافعت أنا عن نفسي، وسألتك إذا كان ما فعلناه قد أعجبك أم لا، وماذا كانت إجابتك، قلـــت نعم بصوت خفيض أو فضلت الســـكوت، وكان ذلك أفضل حلّ بالنسبة لك!

الأب خاصـــة لـــم يفهم، لماذا لم تكن طموحـــا؟ ماذا يريد في الحقيقة؟ إنه يســـتطيع أن يفعل أي شـــيء يريـــده، لكنه لا يريد أي شـــيء على الإطلاق، إنه إنسان بلا إرادة. المعاقون بالتحديد يمتلكـــون دون الآخرين عزيمة صلبة، أمـــا هو فليس لديه طاقة

مطلقا. اسـألوا الأطباء، ردت الأم، فسيقولون لكم ماذا يعني أن تكون إنسانا شديد الإعاقة.

وبحرص تم تجفيف مؤخرة رأسك، ومساعدتك في الجلوس على الطاولة، وحصلت على عصير برتقال طازج. كي يمدّ جسده بالفيتامينات الكافية بعد ذلك الإجهاد، قلت في نفسي، ليس لديه فرصة أبدا في مواجهة الأم! والابن الأصغر، الابن المعاق، استمر فـي محاولته الهبوط من فوق الدرج، ووضـع قدما قبل أخرى، كيلا يسـقط محاولا الوصول إلى الهدف. يجب أن أكون جاهزا لمسـاعدة الأم، إنها في حاجة إلى طبيب، جرّ قدميه المنفرجتين فـوق الأرضية ذات الحجر الرملي مسـتندا علـى عصاه وعلى السـور. أمي ينبغي ألا تموت، يجب أن تبقـى على قيد الحياة، وتصبح سـليمة مرة أخرى. في اسـتطاعة الطبيب أن ينقذها، ينبغي ألا تصير مشلولة، أو أن تفيق من غيبوبتها على الأقل، فلا يمكن أن تبقى ممددة على ظهرها فوق السرير هكذا. ربما يكون مصيرها بيتا لرعاية المسـنين، ولكن أين سـأذهب أنا؟ هنا مرة أخرى درجة سـلم، سـلالم الدرج هذه الملعونة، لأول مرة يصبح غاضبـا حقا، أحس بالعجز، واليـأس، وامتلأت عيناه بالدموع: سـوف يصبح الوقت متأخرا جدا، كل شيء يستغرق زمنا طويلا جدا وأنا لا أحقق أي تقدم على الإطلاق. أدار نفسـه مرة أخرى تسـعين درجة، ضغط عصاه تحت ذراعه اليسـرى، وحاول أولا وضع القدم اليسرى فوق درجة السلم التالية.

شعر بساقيه ترتعشان بقوة من الجهد، بعدها حاول جرّ قدمه اليمنى. انقطعت أنفاسه؛ درجة سلم بعد الأخرى، صار منهكا، لم يعد في وضع يسمح له تقريبا بأن يقوم بأي حركة منظمة، لكنه

أخيرا نجح في النزول، وآخر درجة في السلم، تمكن من التغلب عليها. لكن الآن كان السور قد انتهى، وعليه أن يمشي مترين أو ثلاثة أمتار إلى الأمام، في هذا المكان الذي هو فيه الآن، لا يمكن لسائقي السيارات رؤيته، لو أعطاهم أية إشارة، وكشافات ضوء السيارات لن تكشفه، هنا يبقى في الظلام. ها هي سيارة هناك! المخروط الضوئي لكشاف النور حتى لم يلمسه، لم يتمكن أحد من رؤيته في هذا المكان.

اقترب ڤالتر مع أبيه وهو فوق ظهره، الآن من أحد المزارع، وسمع نباح كلب، عندما خفت صوت ماكينة الحصاد العالي بقرب تل صغير، أسرع خطواته ومشى بعيدا عن المزرعة، وهنا بدأ الأب فجأة في الكلام. تكلم دون انقطاع، تكلم، وتكلم، طرح أسئلة لكنه لم ينتظر الإجابة، كان يوجد في مكان ما، غاص ذهنه في ماضيه، تكلم عن أمه، وعن أبيه، عن المدرسة، تكلم عن زوجته. شتم ولعن وانفجر صارخا على نحو مفاجئ!

قام ڤالتر بشد قدم أبيه، لكن العجوز لم يرد أن يتوقف، قذف بعبارات مشحونة بالكراهية من داخله، وأثناء ذلك بدأ في البصق، وتجمع البصاق فوق رأس الابن. صاح الابن في أبيه: توقف! دعك من ذلك! لا يمكن تحمل ما تفعله. وفجأة تخيل ڤالتر، كما لو كان لا يحمل الأب فوق كتفيه، كما لو كان يراه أمامه مباشرة، قريبا للغاية، كما لو كان ينظر في عينيه الحمراوين كالدم، كما في الماضي عندما كان طفلا، وكان يخاف منه، هذا الأب الذي كان يقرر كل شيء! كان يريد أن يصرخ في أبيه، لكن عروق حنجرته ضاقت، ولم يخرج منها أي صوت. وفي ذروة انفعاله قبض على أذني الأب، فتهشمت غضاريف الأذن

وكأنها من جوز الهند، وأمسك بخدّي الأب، فانفصل الخدان من العظم، وسقط لحم الخدود من الجمجمة. أبي! صرخ فجأة، وأفاق من الخيال!

واستمر الأب في صراخه وهديره فوق ظهر الابن، ولم يخضع لرغبات الابن في إسكاته. وفكر ڤالتر في أن ينزله من فوق ظهره، مثل حقيبة ظهر أثناء فترة استراحة. فكر في إنزاله على الأرض، وأن يسدّ فمه بحفنة من أوراق الشجر، وأن يجبر العجوز على الصمت بوضع قبضة من طحالب مستنقعات الغابة في فمه. توقف أخيرا عن الكلام أرجوك! جرى ڤالتر وهو غاضب فوق حقل قمح مقصوص، وسال العرق متدفقا عبر جسده، كان يتنفس مثل عدّاء ماراثون اقترب من الهدف. لكن لم يعد بالإمكان تهدئة الأب، كانت الكلمات تسقط من فمه من غير قيد، انطلقت من زنازين روحه، كأن هناك عفوا عاما حدث داخل أعماق العجوز، وخرج الكل في ذات الوقت، من مختلف الحقب الزمنية، الكل أراد أن يخرج الآن!

صاح ڤالتر، إنك تجعلني أجنّ، وسوف أسدّ فمك الآن. أثناء الركض، حاول وضع يده على فم الأب وعلى بطن يده، أحس بالشفاه المبللة، وبذقنه الملطخة باللعاب، والآن تكلم الأب من الرأس، من الأطراف، من عظام الفك، من الرقبة، من أسفل الظهر. تكلم عن الحرب العالمية الثانية، عن توزيع التموين، عن قاعات المحاضرات الكبيرة في الجامعة، وعلى نحو مفاجئ تكلم بالفرنسية بطلاقة، ثم سكت بعدها. استند ڤالتر منهكا على حزمة قش مغلفة بالبلاستيك، وقام بمسح عرقه من فوق جبينه، وحاول استرداد أنفاسه مرة ثانية. أيضا الأب كان منهارا بعد

هــذا الانفجــار البركاني، فقد ارتخت رأســه متدليا على كتفي الابن، وكأنه ميت. لكن الابن كان يســمع أنفاســه بشكل متقطع ويحــس بدفئها في رقبتــه. وفي الأفق، في نهايــة الحقل كانت تســطع أنوار كشــافات الضوء لإحدى ماكينات الحصاد، ولمس الضوء وجه ڤالتر.

للحظة لم يعد يرى شــيئا، كانت هناك نقاط بيضاء تتراقص أمام عينيه. وتدريجيا اســتطاع أن يجد طريقه مرة أخرى، تذكر ڤالتر أولى ماكينات حصاد رآها وهو صبي، كانت صغيرة الحجم وليســت بهذا الكمال مثل اليــوم، كان القش يُقذف إلى الخلف، ويتم تجميع حــزم القش في وقت لاحق. اليوم يتم ضغط وكبس القش إلى حزم كبيرة وتقوم الماكينة بتعبئتها في البلاســتيك في نفس الوقت. ليس هناك مكان آخر به مثل هذه الحزم من القش على هيئة رجال. رجال القــش المكونة والمصفوفة خلف بعضها، هــذه الحزم تُحدث طقطقــة عندما ينزل المطــر صيفا، فتقوم الشــمس بتســخين القش، والذي يتحول لونه إلى البني. عندما كنا نلعــب ونحن أطفال على هذه الحقول المحصودة حديثا، كان الماء يتدفق من ســيقان النبات المقصوص فوق سيقاننا العارية، وعندما كنا نلعب الاســتخفاء، كان يصيبنا القرف ونحن ننحني خلف حزم القش المليئة بالبخار كريهة الرائحة.

كان الذباب يحوم حول ســيقان القش محدثا أزيزا، وبخاصة الذبابــات الزرقاء الضخمة ذات المؤخرة الملونة المتألقة. وعندما كانت حزمــة القش تُرفع بعض الشــيء، كانــت مجموعات من النمل والخنافس وقمّل الخشــب والديدان تمــرح تحتها. وعلى مسافة عدة كيلومترات إلى الأسفل من هنا، ناحية البحيرة، كان

الابن الأصغر، المعاق، يحس بالألم في ساقيه المتشنجتين، ولا يستطيع ثني ركبتيه، حاول بكل ما لديه من قوة أن يمنع نفسه من السقوط، ويحافظ على استقامة ساقيه، كما كانوا يعلمونه في آلاف الجلسات من العلاج الطبيعي، لقد بذل كل الجهد.

وتذكر العملية الجراحية التي كان هدفها تطويل عضلات الساق في ذلك الحين، عندما كان عمره خمس سنوات، إنها فرصة، قال طبيب العظام، ربما يمكنه المشي بعدها، من يدري، ولاح أملٌ في الأفق، ربما يستطيع أن يعيش حياة عادية. لقد رقد أسبوعين كاملين على سرير نقال مصنوع من الصلب ومطلي باللون الأبيض، وكلتا ساقيه في الجبس، ولم يتمكن من الحركة على الإطلاق، فالحركة كانت ستقلل من فرص نجاح العملية. كانت لديه كل حيواناته المفضلة من القطيفة وغيرها، ولعب السيارات، والتي كان يلعب بها فوق لوح خشبي صغير، وفي المساء كان لا يريد أن تعود أمه إلى المنزل وتتركه وحيدا في المستشفى.

ذات مرة قام بالتبول في البنطال من الانفعال، وبلل الجبس أعلى فخذيه، وامتص الشاش الخارجي البول، واغتاظت الممرضات. في عمرك هذا! والآن تفوح رائحة البول الكريهة منك طول الوقت. نحن لا نستطيع أن نضع له جبسا جديدا، يجب عدم تحريك السيقان، فالعملية الجراحية لن تكلل بالنجاح، وربما يصير الوضع إلى الأسوأ، ولا يستطيع بعد ذلك تحريك ساقيه على الإطلاق.

بكى أخي عندما سمع ذلك، وتشبث بأكمام الأم، لم يتوقف عن الصراخ، ولم يدع الأم تغادر المكان، في ذلك الوقت كان

غير مســـموح بأن يبيت أحد المرافقين مع الطفل في المستشفى، هناك مواعيد محددة فقط للزيارة. لكن الأم قامت بتقديم رشوة لكبير الأطباء، وللممرضات، حتى تتمكن على الأقل خلال النهار من زيارة ابنها. غير أنه دائما وفي المســاء وبعد وجبة العشــاء، كانــت تأتي لحظة الفراق، وكانت الأصابع الصغيرة تحيط بيدي الأم، ويتــم فكها بالقــوة، ويظل الصغير يئن ويبكــي حتى ينام. بعد ذلك صارت ســاقاه أكثــر نحافة، وكانتا تشــبهان ملعقتين خشــبيتين بارزتين من بنطاله القصير. لكن لم يتم الاستســلام لليــأس، ربما يمكنه الآن تعلم المشــي، لقد تمّ عمــل الكثير من التماريــن معه، وفق الطرق الحديثة، والتــي تعلمها اختصاصي العلاج الطبيعي في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة لمرض الشلل الدماغي عند الأطفال، حيث كان تتم دحرجته فوق كرات كبيرة، وتمتد ســاقاه خلال ذلك، وتنثنــي وتنفرج. كان يتم عمل كل ما من شــأنه تحفيز القدرة على الحركة لديه، بكل الوسائل. وفــي البيت كانت الأم تمارس معــه التمارين بصبر كبير: خلايا مــخ أخرى تقوم بوظائــف الخلايا التي بها خلــل. في الصباح، وفي منتصف النهار وفي المســاء كانوا يضعونه فوق سجادة من المطاط ذات حواف بلاستيكية خضراء. كل شيء كان يتم تعليمه للأطفال الآخرين بسهولة، أما بالنسبة له فقد كان الأمر صعبا، حتــى الزحف العادي على أربع كان يتطلب بالنســبة له برنامجا تدريبيا على درجة عالية من الصعوبة. وبعد كل هذا، كان النجاح الذي أحرزه، يتمثل في تحريك ســاقه اليسرى بعض الشيء إلى الأمام. انظروا، يا له من نجاح، كل شــيء سيصبح على ما يرام، فقــط اتركوا له بعض الوقت، كانت الأم تقول. وتذكر الأخ، كيف

تعلم الأخ أن يمشـــي مُقادا بعصا، كيف نجح رغم تشنج عضلاته في أن يضع قدما بعد أخرى، وبهزة معينة أن يدفع نفســه عدة سنتيمترات إلى الأمام!

لم يكن مشـــيا جميلا، ولكنه على أي حـــال تقدم إلى الأمام. سوف تتحسن حالته، قالت الأم، سوف ترون في غضون سنوات قليلة سيسبقكم في الركض، وظل يؤدي التمارين، وبمرور الزمن لـــم يعد في حاجـــة إلى أن يحملوه من الســـيارة إلى المدرســـة، وتمكنوا من أن يقودوه إلى غرفته. أبدا لم يسخر منه أحد، كانت المدرســـة كلها تعرفه، وفيما بعد في المدرسة الثانوية، وبعد ذلك في الجامعة، لم يبق أبدا شـــخصا مجهولا، الكل كان يعرفه، كان يتذكر كل ذلك الآن، عندما حاول مرة أخرى أن يســـترد أنفاسه. مرة أخرى صاح مســـتنجدا، لا شـــيء، ثم تهادى إلى سمعه في ظل هذا الســـكون، صوت يشبه الأنين، لقد تخيل أن أحدا يناديه باسمه. صاح صارخا: أماه! يا أمي. مرة أخرى، لا شيء.

لم يعد يســـتطيع حفظ توازنـــه، بركبتين مضغوطتين معا كان جســـده ينقبض، قبل أن ينحني، دار حول نفسه، حاول أن يستند علـــى عصاه، لكنه ســـقط على ظهره ووقع بمؤخرة رأســـه فوق الإسفلت. قبض على العصا في توتر متشبثا وكأنه يريد كسرها، كان عليه أن ينهض، كان عليه أن يســـاعد الأم، فرفع رأسه رغم الآلام، فقط لو يســـتطيع ثني ساقيه، لكنها برزت منتصبة بزاوية عشـــرين درجة في الهواء، كان شـــكله يبـــدو وكأنه ميزان قباني يترنح هنا وهناك. كانت هذه الإمكانية الوحيدة؛ أن يلف نفســـه بهزة شـــديدة إلـــى الجانب، لكنه بدأ يلهث من الإجهاد، وســـمع صفير أنفاسه، ارتعشـــت عضلاته، واهتز كل جسده، لكنه نجح

في أن يدير نفسه، وبعدها قام بحركة سريعة، واستطاع أن يصل لوضـــع الرقود على البطن، والآن ربمـــا يتمكن من الزحف على أربع، ودفع نفسه للأمام إلى مقدمة الكراج، حتى يستطيع سائقو السيارات رؤيته.

استند على ذراعيه دافعا نفسه إلى الأعلى محاولا شد ركبتيه ناحية جسمه، في الماضي كان في إمكانه فعل ذلك بشكل أسهل، لكنه الآن لم يعد يتمرن كثيرا، فقد كان يتحرك معظم الوقت في كرسيه المتحرك.

أخي العزيـــز: إنك لم تغضب أبدا، ولم أرك باكيا مذ كنت رضيعـــا، لم تبك حتـــى عندما ماتت جدتك! مـــاذا تفعل في الحقيقة مع مشـــاعرك؟ في المستقبل أيضا لم تكن تخاف من الأخطار الحقيقية، فقـــط الأخطار التي يمكن حدوثها كانت تجعلـــك تحس بالرعب والفـــزع. اليوم أصبـــح الواقع، خارج مكانك الذي يضيق دائما، كابوســـا يهـــددك، حياتك اليومية صـــارت رعبا، أين بقيت فـــي الحقيقة؟ كيـــف كان بإمكانك كإنســـان أن تنقذ نفســـك خلال أعوامك الاثنين والعشرين؟ كيف كان يبدو منفاك الاختياري؟ كيف اســـتطعت أن تحافظ على ذاتك وتبقى كما أنت؟

لكنـــك، حكيت لي مرة على الهاتف، أن مخاوفك كبيرة، وأنها تهدد بابتلاعك في بعض الأحيان، وكنت تعتذر لي لأنك تظن أنك تزعجني، وتضع بعدها النظارة الداكنة فوق عينيك، كانت العائلة كلها تعاملك دائما بعطف وحنان، ولم يشـــأ أحد أن يضايقك أو يزعجك، كنا نبعد عنك كل الأشـــياء السيئة، فهو لديه ما يكفيه ويتحمله في هذه الحياة، كانت الأم تقول. وكنت تحس بكل صور

الشفقة المختلفة، هذه الشـــفقة جعلتك تشعر طول الوقت بأنك صغير، لم تمثل خطرا على أي شخص!

إنـــه ليس فقط طبيعيا للغاية، لكنه فوق ذلك يمتلك ذكاء فوق المتوســـط، هذا ما قاله الطبيب بعـــد اختبار الذكاء، عندما كنت فـــي الثالثة من عمرك، يا له من إحســـاس بالراحة، الآن نمتلك شـــيئا مكتوبا، وامتلأت عينـــا الأب بالدموع، ربما كان مازال في الإمكان إنقاذ الأســـرة من الانهيار. صدقوني، فالصغير ســـوف يجد طريقه، وســـوف تندهشـــون، كانت الأم تقول. أيضا مشكلة المشـــي عنده، سوف تُحل، آجلا أم عاجلا. لقد أنقذت يومنا من الشـــجار يا أخي العزيز في ذلـــك الوقت، ونجحت لأول مرة في الاختبار. ربما كان الأب ســـيحبك أيضا لو كنت متوسط الذكاء، فأنـــت في النهايـــة، ابنه، لحمه ودمه، لكن الذكاء يبقى مســـألة كرامة إنسانية، والأم ربما كانت ستحبك أكثر، حتى لو كنت غبيا بعض الشيء، فسوف تكون في احتياج لها أكثر. أنا لا أدري ماذا كنت ســـأفعل لو كان أخي، ليس فقط جسديا معاقا، ولكن ذهنيا كذلك؟ ماذا كنت ســـأفعل في ذلك الوقت، وكنت في الخامســـة عشرة من العمر؟ لقد تم إثبات أنه طبيعي.

كنـــا نتوقع منـــك أن تقوم بتأدية نشـــاطاتك اليومية بشـــكل مســـتقل، وذلك عندما تصبح ســـلبيتك مصدر شـــكوى وإزعاج لنا، حينها فقط كنا ننادي فجأة مطالبين بأن تؤدي بنفســـك كل شـــيء يخصك. من فضلك؛ عليك أن تفعل شيئا، عليك أن تبذل بعـــض الجهد، لقد كانت نوايانا حســـنة تجاهـــك طوال الوقت، لأنك وحدك لم يكن في اســـتطاعتك أبدا فعل ذلك بهذا الشكل الطيب. إنه مـــن المريح جدا أن يكون لديك أخ أو ابن يعتمد كليا

على مساعدة شخص أقوى وأكثر قدرة منه، عندما تجلس اليوم أمامي في الكرسي المتحرك فأنا أستطيع إدراك نقاط ضعفك، لكن هل أتقبل أنا أيضا نقاط قوتك؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانت لك طلبات خاصة، ماذا كان يمكن أن يكون رد فعلي؟ لكنه لا يستطيع ذلك أبدا، إنها فقط مجرد خيالات في ذهني.

مازال ڤالتر مستندا على حزمة القش المغطاة بالبلاستيك، كانت ومضات البرق قد زادت قوة، هل تستطيع يا أبي أن تتوقف عن إلقاء خطبك؟ حاول الاستمتاع بالليلة الصيفية الجميلة. ما كل هذا الكلام؟ هذه الثرثرة؟ أنا لا أقول ذلك مسرورا، شيء غير وقور. هل مازلت بعد كل هذا، ذلك الإنسان الذي أعرفه؟ هل مازلت أبي بأية حال؟ توقف أخيرا عن هذا الهذيان والكلام غير المفهوم! الآن هو الوقت المناسب لحوار جاد بين الأب وابنه، وإلا فمتى سندير مثل هذا الحوار؟ لديك فرصة للكلام قبل أن نصل إلى أعلى الجبل، إنك تستطيع إيضاح بعض الأمور لي، وتبلغني ماذا بقي لك مهما، وما السقطات التي ارتكبتها في حياتك، ذات يوم سيأتي اليوم الذي تودع فيه الحياة، لن يمكنك حينها أن تقول «إلى اللقاء» أو «تشاو»، ذات يوم سيصير الأمر نهائيا ومن دون رجعة، وسيؤخذ الأمر على محمل الجد.

سوف تكون سعيدا يا أبي بالمنظر الطبيعي من فوق التل إلى أسفل الوادي، وعندما تشرق الشمس، سوف يمكنك عبر المروج والحقول وعبر التلال المكسوة خفيفا بالغابات، رؤية مكانك المحبوب زيورخر أوبرلاند، وسوف ترى جبال الألب من سينتيس عبر الجلارنر حتى برنرالبين، المنظر الطبيعي بأكمله، وبعد العاصفة الرعدية وفي شمس الصباح، ستبدو الطبيعة في

أزهى صورها بعد أن قامت قدرة الخالق بغسلها. لن تكون هناك ذرة تراب فوق أوراق الشجر، كل شيء سيكون نظيفا، وريش الطيور سيلمع في ضوء الشمس، كل شيء وكأنه جديد. وأنت سوف تجلس في الشرفة، وستكون محميا من الشمس، وأيضا من هطول المطر المفاجئ، ستسمع فقط صوت طقطقة فوق السطح، وربما بين الفينة والفينة تنفجر قطرة ماء طائشة فوق رأسك الأصلع.

سوف أجعل المكان مريحا بالنسبة لك، سيكون الماء في متناول يدك، سوف أعد لك زجاجة الترموس، وأجعل غطائها سهل الفتح حتى يمكنك فتحها عند الحاجة دون جهد، وستطوف الصور المنطبعة بذهنك في ذاكرتك، وسيلتحم الماضي بالحاضر، الأمس واليوم، ستنظر إلى الأحداث كما من خلال كاليدوسكوب، ومن حين لآخر سوف تضع زجاجة الترموس على فمك، وسوف تبلل شفتيك بعض الشيء، إنك لن تشرب الكثير من الماء، وسوف يصيبك الجفاف تدريجيا وتصبح مجدبا، وفجأة تسقط أبكمَ على الجانب، في هذه الحالة سيكون الشأن شأنك، هل سينظر كلٌ منا في عينَي الآخر مرة أخيرة عند الوداع؟ طويلا سينظر كل منا في عيني الآخر.

هل ستدرك على الإطلاق أنني هنا؟ أم سوف أغادر في صمت؟ وببطء أبدأ في الهبوط من الجبل؟ هل ستمتلئ عيناي بالدموع؟ وهل ستلوذ بالصمت؟ أم أنك سوف تهذي؟ ماذا يمكن أن يحدث لو قمت بالصراخ، بكل قوة، بشكل خارق، مثل حيوان جريح؟ هل ستدمع عيناك؟ هل سأقدر البتة أن أنفصل عنك؟ من المحتمل أن أبقى برهة بجانبك، ربما عدة ساعات، ربما يوما كاملا، من

يدري ماذا سيخطر ببالي في تلك اللحظة، وهل سيكون فيها كل شيء وبالكاد تحت سيطرتي، أليس كذلك يا أبي؟ سوف ننتظر سويا، بعدها سوف تأتي اللحظة التي سوف أقف فيها وأقوم بتوديعك، سوف تأتى اللحظة التي سأمد يدي لك فيها للمرة الأخيرة، وربما أحضنك مرة أخرى، أحضن جسدك النحيل، وربما أقوم بطبع قبلة على جبينك، ولن تخرج مني كلمة، لأن صوتي سوف يخذلني، لقد كنت دائما أخشى ذلك. ربما قلت إنه ينبغي أن أتماسك، لكني لا أستطيع أن أقبض على أسناني وأن أفتح فمي في نفس الوقت وأقول شيئا ملائما، أم أنه كان علي أن أرحل بعيدا صامتا وبكل بساطة؟ ربما تكون في تلك اللحظة ساقطا على جنبك.

وعندما ألتفت إلى مكانك بعد هبوطي من الجبل عدة مئات من الأمتار، هل يجب أن أعود إليك مرة أخرى؟ بين الفينة والفينة سوف تطير طائرة فوقك تاركة آثار دخانها الأبيض، وأسراب البعوض سوف ترقص حولك، والذباب سوف يطن فوق رأسك، وسيسقط على جسدك وسوف يدغدغك، وسوف تقوم بإخافته بحركة لا إرادية، وفي وقت ما ستصبح غير مكترث بها، ستزحف فوق شفتيك وجفنيك، ربما تغمز بعد بعينيك، أو ربما تتحملها وأنت ساكن بلا حركة، عندما تحكّ بخراطيمها فوق مقلتيك. علّي أن أثبت لك الخدمة الأخيرة؟ ماذا تتوقع في الحقيقة مني؟ ماذا تتخيل في الواقع أن أقوم به؟ هل يجب أن أخنقك؟ أم أقتلك؟ أم تريد مني أن أحضر حجرا ثقيلا في يدي، وأرجع بيدي إلى الوراء، بعيدا إلى الوراء، ثم أرميه بكل قوة فوق رأسك العجوز، حتى تتحطم عظام رأسك؟ هل سيكون ذلك

مناسبا لذوقك؟ هل سيكون ذلك عملا رجوليا؟ واجب الابن؟ لا تغادر؟ وانظر في العيون؟ هل كنت تعني ذلك؟

هل أبدأ الآن في فهمك؟ أم يجب أن أدفعك إلى الأسفل عبر الحائط الصخري وأسمع كيف سوف يسقط جسدك تحت، فوق الأعشاب المقصوصة؟ هل عندها سيتم تسليم العصا كما في مسابقات العدو، من الأب إلى الابن، من رجل إلى رجل؟ أنا أخشى يا أبي أن أصبح في يوم من الأيام وحيدا، كما أنت الآن، أخشى أن أستيقظ ذات صباح ولا أجد إلا الوحدة تلفني مثل صقيع. هل سأسافر حاملا كيس البلاستيك، يطاردني هذا القلق الغريب في أعماقي؟ هل سأقوم أيضا بتأدية تمارين الضغط، قويا وصارما، كي أثبت لنفسي أن كل شيء لا يزال على ما يرام؟ وهل سأقوم أيضا برفع نفسي عاليا متأوها، حتى تقفز أوتاري من مفاصلي، وحتى تتمزق عضلاتي؟

قام ڤالتر بدفع نفسه بعيدا عن حزمة القش، وحمل الأب ثانية إلى الوضع الصحيح، إنه يشعر الآن بحزام حقيبة الظهر على كتفيه، لكنه كان متنبها لهذا الأمر، فقد كانت معه المناديل الورقية التي قام بطيّها وحشرها تحت حزام الجلد. صار صوت ماكينات الحصاد ضعيفا مع مرور الوقت، ولم يعد هناك إلا أصوات الليل، هذا لم يكن فقط وميض البرق، لقد بدأت العاصفة الرعدية بالفعل فوق بحيرة الأوبرزيه، والآن يمكن سماع صوت رعد بعيد. نعم يا أبي، أنا أخشى من الوحدة، أخشى هذا القلق الذي كدّر حياتك، وخطرت مارا على ذهن ڤالتر، والمناقشات التي تمت صباحا، عندما يبلغ المرء سنّ الخمسين، لا يستطيع أن يُنهي علاقة هكذا بسهولة ويبدأ علاقة جديدة دون تفكير.

على نحـــو مفاجئ يصعد الخـــوف في داخل الإنســـان، كما البرودة في غرفة ليست دافئة، تبدأ البرودة عند الأقدام، وتتسلق عاليا لأسفل الســـاقين حتى الركبتين، وسرعان ما تلف الجسد كله سحابة ضبابية من الثلج الجاف. مرارا وتكرارا ما أعود إلى نفس النقطـــة في علاقاتي. في الماضي كنـــت ألقي باللوم على النساء عند فشلي معهن، يجب أن ننفصل، انصرفي، كنت أصيح كل مرة وبجرأة وفي غمرة حزني اليائس، ذات يوم ســـأعثر على المرأة المناسبة، أقول في نفسي. وبالفعل مرارا كانت هناك علاقة جديدة تبقى لبعض الوقت، ثم يتبين أنها المرأة غير المناسبة، لكن اليوم أصبحت أنا الشخص غير المناسب، صرت متشككا، ولكني أريـــد أن تعود العلاقة من جديـــد، ولكن ماذا أفعل لو كانت مارا لا تريـــد؟ هل تعتقد أن هناك مخرجا يا أبي؟ عندما كنت طفلا، كنـــت في بعض الأحيان أفكر أن هناك شـــيئا ليس صحيحا في شخصيتي، كنت أعتقد أن هناك شيئا ينقصني كي أصبح إنسانا كامـــلا. يبدو أنه كان يجب عليـــك أن تجعلني مادة لتجاربك في القبو، ربما لهواياتك الحرفية والفنية.

وبعد ذلك عندما جاء أخي الصغير إلى العالم بإعاقته، تحول ظني إلى يقين. تجاربك في النســـل ضلت السبيل، تبين لي فيما بعد أنك بريء ولست مسؤولا عن إعاقة أخي، فنحن نولد والخلل في داخلنا. لم تنفصل أبدا عن أمي بشـــكل نهائي، فشـــجاركما وصراعكما، كان بمثابة ضرورة حياتية لكل منكما. منذ شبابكما المبكـــر، كنتما متداخلين ملتحمين حتى أيامكما الأخيرة أنهك كل منكمـــا الآخر، ولم تنفصـــلا، كان كل منكما مرتبطا بالآخر. هل كان الحنان مســـتترا في الشجار بينكما؟ هل كان حبكما مخفيا

في الإهانات؟ وشــهواتكما أسيرة الكراهية؟ ماذا أفعل حقا الآن لو لم تعد مارا إليّ؟ فالوحدة مع تقدم العمر تصبح أمرا لا يمكن تغييره، من دون شــريكة حياة أشــعر بالضيــاع، فأنا في حاجة دائمة إلى الحب، ومن دونه لا أستطيع الحياة.

ارجعــي إليّ يا مارا، يجب أن نحاول العيش ســويا مرة أخرى، ڤالتر كان ســعيدا، لأنه اســتطاع أن يمضي، فقد كان يخشــى أن يصاب بالجنون مع كل هذه الصور التي تطارده، لقد غادر كما الأب في الماضي، ربما بدأ الآن في أن يحل محله، ربما كانت هذه بداية حقبة جديدة في حياته، ربما يخرج للسير يوميا عدة كيلومترات في الحيّ، حتى يمكنــه التغلب على الخيالات التي تلاحقه، والمصاعب والأزمات اليومية والواقع بكل تفاصيله ومشــكلاته، سيخرج للسير في الشــوارع، مثل مجنون كي يستريح من قلقه ويصبح سيد نفسه، وإن لم يكن كل ذلك كافيا، فماذا سيفعل إذن؟

ارجعــي إليّ يا مارا! وإلا فســأصعد التــرام ذات يوم، وأظل أصرخ وأصــرخ، وأشــتم البنوك، وبابــا الفاتيــكان والأحزاب السياســية، وأشــعر أن كائنات من الفضاء تطاردني. هل تسمع صوت الجداجد يا أبي؟ إنها تزقزق وتغرد بقوة كما في الجنوب، أود يا أبي أن تعلّمني الحياة مرة أخرى، أريد أن تجعلني مستعدا لنهايــة اللعبة، أن تريــي كيف يبدو الأمر عندمــا تخمد طاقة الحيــاة، عندما لا يســتطيع المرء فجأة توجيــه البوصلة ناحية المســتقبل، عندما لا يمتد الأفق عند السير، بل يتوقف فورا مع رعشة وإلى الأبد.

وصل ڤالتــر إلى تلّ صغير، وبدأ يتبع في ســيره ســياجا كهربائيــا، ترقد خلفه بقرات تجترّ ويبدو شــكلها وكأنها أكوام

ترابية. هل كنت مستاء يا أبي لهذا السبب؟ ويبدو وجهك عابسا؟ هذه الآلام والهموم لا يمكن التعبير عنها للأسف، حتى لأقرب الأصدقاء، يمكنك التلميح فحسب. في اللحظة التي تخرج هذه الأفكار من أعماقك، تفقد معناها وتصير تافهة. انظر إلى أسفل التل، إلى البيوت، والقرى، والمناطق السكنية، معظم الناس تنام الآن!

المتزوجون يرقدون جنبا إلى جنب ويتنفسون بعمق، والأطفال نصف مغطاة لسخونة الجو، ينامون حاضنين دمى الدببة، وكبار السن يتقلبون في فراشهم بقلق، والكلاب تتمدد فوق البلاط الحجري البارد، والقطط تمكث في الحقول المقصوصة حديثا أمام حفر الفئران في انتظار الغنيمة. إلى الأمام يا أبي، علينا أن نسرع الخطى، فهناك رياح خفيفة تهب الآن، وصوت الرعد يصبح دائما أعلى، هطول المطر بات قريبا يا أبي. ماذا يحدث ذات يوم عندما لا يستطيع الرجل أداء واجباته؟ كيف يكون الوضع عندئذ؟ عندما يصبح الرجل عاجزا فجأة؟ متى تبدأ هذه المرحلة يا أبي؟ في عمر السبعين؟ أم في الثمانين؟ أو ربما بعد ذلك؟ عندها يصبح الرجل أسيرا لذاته.

نعم، عن الأشياء الصغيرة اليومية، لا يريد أحد أن يتكلم، رغم أنها أحيانا تجعل الإنسان تعيسا أو سعيدا. كيف تريد أن تخبر أحدا، إنك الآن ترى وتدرك الطبيعة بعيون أخرى؟ فعندما تنظر إلى الطبيعة الآن، يعتريك التوتر وتجتر الذكريات، أهذا هو الأسى والحنين؟ الآن أستطيع أن أفهمك فجأة يا أبي بشكل أفضل ومكانك المحبوب زيورخر أوبرلاند، معظم الناس خلدت إلى الراحة في البيوت، لقد ناموا رغم سخونة الجو!

في مستشفى الحي زارت ممرضة في مناوبة الليل، مريضا تم إجراء عملية جراحية له للتو، سألته عن حاله، وراجعت نبضه. وقائد سيارة مخمور لمس بسيارته المسرعة وهو في طريق العودة إلى البيت، جانب الجسر وفقد أثناء ذلك غطاء إطار السيارة وواقيه، حيث قفز فوق الإسفلت محدثا ضجيجا، لكنه استمر في قيادة السيارة وأضاء كشافات النور. أما الابن الأصغر المعاق فهو مازال راقدا أمام الكراج، وقد حاول دفع نفسه زاحفا على أربع إلى الأمام قليلا، دائما ما تمر سيارة، لكن لأن أحدا لم يلحظه، قرر أن يزحف قريبا في نطاق ضوء كشافات السيارات المارة. في بعض السيارات، كان لا يوجد غير قائديها فقط، في طريقهم من المطار إلى منازلهم، وقد قاموا بتخفيف أربطة العنق، وكانوا يسمعون تقرير الطقس وأخبار البورصة، آخرون كانوا مخمورين بعض الشيء، وكانوا في طريق عودتهم من جلسة أنس لعبوا فيها الورق وهم يصفرون ويدندنون أغنية معا، ومتزوجون في ثياب السهرة الأنيقة عادوا إلى بيوتهم، ربما كانوا في حفلة موسيقية في الهواء الطلق، أو ربما في حفل في ليلة صيفية، وآخرون يجلسون كالخرس جنبا إلى جنب، فقد تشاجروا في طريق عودتهم، وكانوا يخشون من الدخول إلى البيت معا، ومن وقوفهما الصامت سويا في غرفة الاستحمام.

الأخ الصغير كان قد تعلم عندما كان طفلا، أن يبقى على ركبتيه في زاوية قائمة لعدة دقائق، كان هذا تمرينا مهما في العلاج الطبيعي الذي كان يتلقاه، ومن حين لآخر كانت ساقاه تتمددان من تلقاء نفسهما، وكانت الأم أو المعالج الطبيعي يقومان بثني الساق مرة أخرى، كان الوضع يتحسن دائما، وبمرور الوقت

نجح في دفع ركبة واحدة قليلا إلى الأمام، دون أن تمتد الأخرى في نفس الوقت لا إراديا مرة أخرى. وهو الآن يحاول ذلك أيضا، لكنه لم يعد تمرينا، كان الإسفلت خشنا، والاحتكاك قويا، لم يستطع التقدم إلى الأمام، حاول رفع ركبته بعض الشيء، على الأقل المسافة القصيرة إلى السور للوراء، يجب أن يتغلب على نفسه لإنجازها، ومرة أخرى مرت سيارة مسرعة، هذه المرة صرخ بكل ما أوتي من قوة: مرة أخرى لا شيء.

قبض على الأعمدة المثبت فيها السور، وحاول النهوض على ركبتيه، جذب نفسه عاليا، واستطاع الوقوف على أطراف قدميه، بدأت ساقاه في الارتعاش ثانية، لكنه نجح في السيطرة على عضلاته، استند بيد على السور، وبالأخرى قبض على عصاه وبدأ يبحث بها عن فرع شجرة قوي، عثر على واحد وقبض عليه، تلمّس بالعصا بحثا عن فرع آخر، الغصون الصغيرة كانت تبرز في وجهه، كان يحس بأوراقها الطرية، كانت تدغدغه. شعر بالجرأة، ومد يده سريعا، لكن الغصن التالي كان ضعيفا، وأصبح في حالة يمكن أن يفقد فيها توازنه، وأن يدور حول نفسه، بكل قوة ضغط بالعصا على الأرض، لكن العصا انزلقت إلى الجانب، وكانت آثار المطاط ظاهرة على الإسفلت، ومدّ يده إلى جذع الشجرة من نوع الشرد الأوروبي، وفي أثناء ذلك خدشت فروعها الصغيرة وجهه، لكنه تمكن من الاستناد، واستطاع أن يشد عصاه ثانية، سيارات مسرعة كانت تمر طوال الوقت، أحد سائقي السيارات كان يحاول ضبط إحدى محطات مذياع السيارة، فظل للحظة غير منتبه عند المنحنى، ثم اندفع بالسيارة بشدة حتى أوشكت أن تنقلب أمام الكراج، ومرت سيارة

أخرى، يجب أن ينتبه أي شخص لوجوده، ما الذي ينبغي علي أن أفعله؟ أنا لا أستطيع أن ألقي بنفسي في الشارع، وأدع السيارات تدهسني. انظروا تجاهي أخيرا أيها المغفلون؛ صرخ في يأس؛ ألا ترونـي؟ أين تحملقون؟!.. لو أنه استطاع أن يتقدم مترا أو مترين إلى الأمام، لأصبح في نطاق ضوء كشافات السيارات ولتمكن سائقوها من رؤيته!

متنقلا من جذع شجرة صغير إلى آخر أخذ يتحرك ناحية الشارع، وعندما رأى ضوء كشافات السيارات القادمة من بعيد، أصبح على أهبة الاستعداد، وبحرص أدار نفسه في الوضع الصحيح، قبض بيده اليمنى على جذع شجرة الشرد الأوروبي بقوة، وبدأ يلوح بعصاه عندما ظهرت سيارة عند المنحنى، مرة أخرى لا شيء، وبسبب الحركات العنيفة لذراعه اليسرى، صار الآن مرة ثانية في وضع ربما يفقد فيه توازنه، لكنه في اللحظة الأخيرة استطاع أن يقبض بكلتا يديه على جذع شجرة صغيرة، لاهثا وبركبتين مرتعشتين مضمومتين معا، أراد أن يستريح برهة قصيرة، بعدها انحنى ببطء، كي يمسك ثانية بالعصا التي كانت قد انزلقت منه.

أحس ڤالتر بالألم في ظهره، وبدأ يشعر بثقل وزن أبيه، لكنه أصبح سعيدا لأنه وصل إلى أرض مستوية، فعلى الطريق الضيق بين الحقول، استطاع أن يمشي بسهولة أكثر، وكان يسمع من بعيد ضوضاء ماكينة حصاد، وبدأ الأب في اللعن مرة أخرى، كان يتكلم دون انقطاع عن زوجته، تلك المرأة التي دمرت حياته كلها. توقف عن هذا الهراء، صرخ ڤالتر، أنا لا يمكنني تحمل ذلك، عندها أصبح الأب قلقا وبدأ في التململ وهز رجليه بقوة،

وفجأة ظهرت ماكينة حصاد بعيدا، حيث بدأ الحقل في الانحدار قليلا، كانت وكأنها مروحية هجومية بدت وعلى نحو غير متوقع في الأفق، كشافات النور كانت تضيء وجهيهما، والماكينة العملاقة اتجهت نحوهما، توقف عن الكلام! صرخ ڤالتر أثناء الضوضاء في أبيه؛ أنت تجعلني أفقد توازني! أخذت ماكينة الحصاد طريقها نحوهما بضجيجها العالي، وبدا وكأن السائق لم يلحظهما.

تبدو الأحداث وكأنها في فيلم «الشمال الغربي» من إخراج هيتشكوك، قال ڤالتر في نفسه، كانت طائرة صغيرة تطارد كاري جرانت فوق حقل واسع، في اللحظة الأخيرة استطاع ڤالتر أن يقفز إلى الجانب في حقل الذرة، سائق مجنون! ومازال الأب مستمرا في شتائمه، ولم يعد من الممكن تهدئته. خلف ماكينة الحصاد كان القش الجاف يطير في الهواء، وارتفع التراب. بدأ ڤالتر في السعال، ولم يتوقف عن اللعن، وعاد للسير على الطريق بين الحقول. انتظر، سأريك، تملكه الغضب، حتى إنه بدأ مرة أخرى في الركض، وبدأت رأس الأب تتأرجح بقوة هنا وهناك، إلى الأعلى وإلى الأسفل، مثل رأس رضيع. اقفز، اقفز، أيها الفارس، صرخ في أبيه إلى فوق، عندما يسقط، فسوف يصرخ ركض وركض، حتى سكت العجوز، لكنه بعد ذلك بدأ من جديد في الصراخ، الذي حجب ضوضاء ماكينة الحصاد، وكانت قد بدأت في الابتعاد.

استشاط الأب غضبا، وبصق، ثم بدأ يخدش بأظافره، ويصرخ. انفجر مثل صاروخ ألعاب نارية، وهو يبصق شعاعا ناريا أخيرا، قبل أن يخمد نهائيا، حاول ڤالتر حفظ توازنه، والتماسك

رغم حركات الأب فوق ظهره، مشى بساقين متباعدتين مثل بحّار في جو عاصف، وكان على وشك السقوط على الأرض، واستطاع في اللحظة الأخيرة أن يستند على جذع شجرة كمثرى، وقام بضغط الأب على الجذع، حيث لم يكن هناك أمام العجوز أي مجال ممكن للحركة سوى أن يحرك قدميه وذراعيه فقط بعض الشيء، مثل دمية متحركة الأطراف. توقف ڤالتر لحظة وهو في غاية الإرهاق، أخيرا وجد طريقة يكبح بها الأب، هذا العجوز النافر، وإرجاعه إلى رشده.

لقد بدأ ڤالتر الآن يفهم العاملين في دار الرعاية على نحو أفضل، إنه يفهم الآن غضبهم، غضبهم الرهيب. في هذه اللحظة بصق الأب مرة أخرى، وغرس أسنانه الأمامية والتي مازالت سليمة في جلد رأس الابن، وشد شعراته القليلة المتبقية. ضغط ڤالتر جسد العجوز على جذع شجرة الكمثرى، واستمر في ضغطه، حتى إن الأب لم يستطع التنفس وتوقف أخيرا عن العضّ والبصق، وارتخت يداه وسقطتا إلى أسفل. وابتعد ڤالتر بجسده على جذع شجرة الكمثرى، وبدأ في إكمال سيره، تذمر قليلا، وقال في نفسه: قريبا سيهطل المطر. منذ وقت وأنا ملتزم بأن أكون مسالما معك يا أبي، في الماضي كنت أستطيع مقاومة أفعالك، لكني اليوم تزداد خشيتي من أن أصير مثلك. إن ذلك كالقدر، لا يمكن إيقافه، فالحياة تصبح من يوم لآخر أكثر جدية، الآن أعتقد ذلك.

أشعر بالقطرات الأولى من المطر، هل أبدأ العلاقة معها من جديد؟ مع مارا؟ أعتقد أنه من الصعوبة إصلاح ما تم كسره. إنه يعرف ذلك، عندما تبدأ علاقة ما في الانزلاق، عندما يبدأ

كل شـــيء في الانهيار، فعلى المرء في هذه اللحظة أن ينسى هذه العلاقة بالمرة.

ربما في لحظة سعيدة، يبدأ كلام جميل، وتشتعل العواطف، عندما تلتقي العيون. بعد ذلك وبعد نهاية اللقاء، يعود الصراع بينهمـــا كما كان، ويعود كل منهما لدوره القديم، لكنه يفتقدها الآن، مـــاذا حدث فـــي الحقيقة لها؟ إنها تعــرف من أنا، منذ بدأت علاقتنا، لماذا لم تعد تتحملني؟ ماذا جرى لها؟ لو لم أكن أحبهـــا، لكنت تركتها منذ زمن، لقد كانـــت حياتي معها رائعة بالفعـــل. بداية تعارفنا، واللقـــاءات الأولى الجميلة، وأحاديثنا التي كانت تمتد لســـاعات طويلة، في نزهاتنا في الجبال، كنا نحس أنفسنا خفافا ونحن هناك في الأعلى فوق قمم الجبال، وكان التقاء جســـدينا وروحينا يجسد قمة الحب، لماذا وفجأة يضيـــع كل هذا؟ هل أصابكِ الجنون يـــا مارا؟ الآن بدأ يهطل المطر فعلا، اندفعت قطـــرات المطر الأولى الثقيلة فوق أوراق الشـــجر وكأنها طلقات رصاص صغيرة. فقط بعد عدة مئات من الأمتار وفـــي المنحدر، ضرب البرق شـــجرة بقوة، محدثا ضجة شـــديدة. والآن هطل المطـــر، وكأن الغيوم قذفت كل ما تحمله من ماء في ثانية واحدة!

ريـــح صاخبة عصفت بُذرى الأشـــجار، وقذفـــت ڤالتر وأباه بالمطـــر في وجهيهما، الماء البارد شـــيء جميـــل، أليس كذلك يا أبـــي؟ إنه ينعش الـــروح، ويمنح الطاقة، فلننطلق، ونشـــد أزرنا، ونشـــحذ عزيمتنا، كما علمتني دائما، يجب أن تكون صلبا: هيا، يا حصاني الصغير، اركض، اركض. أخرج ڤالتر لســـانه وامتص قطرات المياه عبر الشـــفاه، قميصه وبنطاله صارا مبللين بالماء،

إنه يستمتع بالبرودة، ومضات البرق جعلته منفعلا، وبدأ يصرخ في الرعد، محاولا حجب صوته، والابن المعاق كان مازال يقف شبه منتصب، بركبتين مضمومتين، وقد تشبث بيد في جذع شجرة الشرد، وبالأخرى استند على عصاه، لو يراه فقط سائق سيارة، من السيارات التي تمر!

شعر بقطرة الماء الأولى على يده، وغمر المكان برقٌ بضوء أزرق وهّاج. ضربات الرعد القوية التي تلت ذلك البرق مباشرة أصابته بالفزع، حتى إن عضلاته توترت وبدأت في الارتعاش، الريح القوية قذفت ماء المطر الثقيل في كل اتجاه، وفي لمح البصر صار مبللا بالماء تماما، بدأ مرة أخرى في الصياح، وفي أثناء ذلك مرت عدة سيارات مسرعة أمام البيت.

يجب أن ينتبه أي شخص لوجوده. صرخ بكل ما استطاع من قوة، وفجأة رأى خلال المطر المنهمر الثقيل، رأى نورا لكشافَي ضوء كبيرين، وفي ذات الوقت سمع صوت محرك ماكينة حصاد، تقترب منه في المنحنى. لم يعد قادرا على الوقوف على قدميه، وتشنجت عضلات ساقيه مسببة له الألم، اقتربت ماكينة الحصاد، وفي ضوئها رأى قطرات المطر تقفز فوق الإسفلت، كانت تلمع مثل اللؤلؤ، لقد كانت كرات ثلج صغيرة، وبالفعل مسَّ نورْ كشاف الضوء الأول مكان الكراج، كانت الماكينة العملاقة أعرض من نصف الشارع، لذا كان يرافقها جرار في المقدمة بكشافات تحذير تومض وميضا متقطعا. حاول أن يقف مستقيما، وتشبثت أصابعه بكل قوة بفروع الشجر؛ إنها الآن فرصته، لأنهما يسيران ببطء، والمكان أصبح مضاء بالكامل من خلال كشافات الضوء الكبيرة، كان يجب أن يروه!

في هــذه اللحظة اندلع برق قوي مرة أخرى، ولبرهة قصيرة أصبح كل شيء ساطعا، ثم تلت البرق فرقعة عنيفة، والأخ المعاق أصيــب بالفزع بشــدة، اضطر معها لترك فروع الشــجر، وفقد توازنــه، وانهار ببطء على الأرض، وســقط في عرض الشــارع على الإســفلت، حيث شعرت يداه بكرات الثلج الصغيرة الباردة، وهنا رآه ســائق ماكينة الحصاد فجأة، فأوقف مركبته، وأعطى إشــارة إلى ســائق الجرار، بعدها نزل من كابينة القيادة، وكانت كــرات الثلج الصغيرة تقفز مرتدة فــوق صفيح الماكينة المعدني، متناثرة في كل جانب، ترك الســائق درجات الســلم الأخيرة في الماكينة وقفز فوق الإسفلت المغطى بكرات الثلج البيضاء، واتجه مع ســائق الجرار إلى الابن الأصغــر المعاق الراقد على الأرض، وسأله ماذا حدث؟!

بعدهــا حــاول الرجلان رفعه إلى أعلى، ولم يكن هذا شــيئا ســهلا، لأنهما لم يعتــادا التعامل مــع المعاقين، بــذلا قصارى جهدهما، وكانا شديدي الحرص، يتعاملان معه مثل بيضة نيئة، لم يعرفا من أين ينبغي الإمســاك به، وفــي النهاية قاما بحمله مثل مصاب بجــروح خطيرة إلى الدرجات الأخيرة من الســلم، وسألاه؛ لماذا لم تتصل هاتفيا بالنجدة؟ وعندما سمعا بما حدث قامــا أحدهما بالاتصــال من تليفونه المحمول بالإســعاف على الفــور، قبل أن يتجها إلى مــكان الأم داخل البيت. ظلّ ســائق الجرار جالســا على الأرض بجانب الابن فــوق الدرجة الأخيرة من السلم، ووضع ســترته فوق كتفيه ليحميه من المطر، وهمس قائلا: ســوف يصير كل شيء على ما يرام. في هذه اللحظة عاد ســائق ماكينة الحصاد، وقال بصوت خافت لزميله، إنه لم يجد

أي علامة للحياة، ولكنه لا يستطيع أن يجزم بذلك بالضبط، فهو في النهاية ليس متخصصا، الطبيب وحده هو الذي يستطيع أن يقرر ذلك.

سـمع الابن المعاق هـذه الكلمات، وبدت وكأنهـا لا تخصه، ولبرهـة قصيرة ظل الرجال الثلاثة في حالة تردد.. قال سـائق الجرار: يجب أن نحمله إلى داخل المنزل، لكن علينا أولا أن نقوم بركن ماكينة الحصاد إلى جانب الشارع، لأنها تعيق حركة المرور، سنعود حالا. نظر الأخ الأصغر إلى يديه المجروحتين، وإلى الدم، الذي يقطر منها سـريعا وممزوجا بالماء فوق جلده وساقطا على الأرض. يبـدو أن الأم قـد ماتت بالفعل، قال في نفسـه، لكنها كانـت قد نادته، ربما كانت تلك هـي صرخة الموت؟ أم يبدو أنه كان مخطئـا؟ لـم تعد السـماء تمطر كرات ثلـج، لكن الأمطار مازالـت تهطل بغزارة، عاد الرجلان وقاما بمسـاعدته للوقوف على ساقيه، أحدهما أمسكه من تحت إبطيه والآخر أمسكه من قدميه، وبعد عدة محاولات نجحا في أن يقف بجانب السور. لو استطعتما أخذ يدي اليمنى فسأكون في الوضع الذي يسمح لي بأن أمشي، من فضلكما، ليس بسرعة، وبخاصة فوق الدرج، فأنا يلزمني بعض الوقت، حتى أقوم برفع القدمين. كلا، أنا لست في الحقيقة مشـلولا، أنا أعاني من الاضطـراب الحركي، نعم منذ ولادتي، كلا، وإلا ما كنت في حاجة للمساعدة، يكفي لو أمسكت يدي بقوة كي أستطيع أن أستند.

هـا هو برقٌ آخر يندلع، بعده مباشـرة ضـرب الرعد، والأخ الأصغر ينهار ويسقط على ركبتيه، والرجلان يحاولان مساعدته، والآن قاما بإسـناده أيضا من الخلف، لكن ذلك يقيده ويسـلب

حريته الضرورية في الحركة، لم يسمعا ما قاله لهما بالمرة، وكانا مدفوعين برغبتهما في المساعدة. ومرة أخرى ضرب الرعد بقوة، وهنا قال سـائق ماكينة الحصاد، يحتمل أن يكون هذا البرق قد ضـرب بركة المـاء القريبة. وانزلق الابن المعاق من فوق سـلالم الدرج المبللة إلى أسفل، لكن سائق الجرار قام بمسك يده ورفعه عاليا. لا يمكن أن نسـتمر هكـذا، علينا حمله. لا، اتركاني، قال الأخ الأصغر الذي اسـتند الآن ثانية على السور، لو في إمكاني أن أهدأ لحظة واحدة، لتمكنت من التحرك وحدي.

كانت الأم قد ماتت، كانت ممدة على سـريرها، آمل أن يكون الرجل قد قام بتغطيتها، لقد كان يخشـى مـن رؤية الأم الميتة، ومـرة أخرى ضرب الرعد بعنف، نحن نوجد في مركز العاصفة الرعدية، قال سـائق ماكينة الحصاد، والابن الأصغر كان يشعر مع الوقت بالتوتر الشـديد، وكيف أنه أصبح عاجزا عن تحريك قدميه، وكيف أنه يندفع واقعا على ركبتيه.

إلى الأمام، كان الأب يصيح في الماضي في مثل هذه المواقف، إلى الأمام، تماسك! لكن الآن لم يعد هناك من يحفزه ويشجعه، وكان الرجلان قد وقفا في حالة عجز تامة من حوله.

وهنا قرر سـائق ماكينة الحصاد الإمسـاك بالابن من تحت ذراعيه، في حين قبض الآخر على قدميه وحملاه معا إلى داخل المنزل. والآن بدأ ڤالتر رغم المطر في الصعود الأخير، كان عليه أن ينحني بعض الشيء إلى الأمام، كيلا يفقد توازنه. وبحذر كان يضع قدما قبل الأخرى كيلا ينزلق، لكن الأب الجالس فوق ظهر الابن المنحني، لم يهدأ وأصبح عصبيا، وتأرجح بكل جسـده هنا وهنـاك، ولوح بذراعيه في الهواء. هل تسـتطيع أن تتوقف؟ إن

الأمر خطير، فالطريق يتجه بنا إلى الأعلى بشـــكل حاد. بفضل ومضات البرق المتتالية، والتي أضـــاءت المكان لجزء من الثانية، استطاع ڤالتر أن يوجّه نفسه إلى الطريق الصحيح. لن نستسلم، صرخ في أبيه، من يبدأ الطريق عليه أن يكمله، لقد تعلمت ذلك منك مبكرا، فقط لا تتعلل بالتعب، أمســـك نفسك جيدا، الرأس للأسفل، وهيا بنا!

سائق ماكينة الحصاد وزميله كانا يريدان وضع الابن الأصغر المعاق على كرسيه المتحرك بجانب المدخل، لكن عضلات جسده تشـــنجت، ولم يتمكنا من وضعه على الكرسي. وقف صلبا كلوح من خشـــب بين الرجلين وكأنه منوم مغناطيسيا، والرجلان صارا مرة أخرى مترددـيـــن، هل ينبغي عليهما وضعه على الأرض؟ إنه يريد بالتأكيد الاتجاه إلى غرفة أمه، أجل، وبكل سرور، أجابهما بأدب عندما سألاه.

فـــي الحقيقة، لم يرد هو ذلك، لقد كان خائفا، وقلقا من لقاء الأم، كان الموت يبدو بالنســـبة له وكأنه مـــرضٌ معد. هل ينبغي حملك ووضعك على الســـرير؟ لكن جســـده ظل كلوح خشب، لم يـــزل غير قادر على الحركة. ربما يجـــب أن نضعك بجانب الأم على الأرض؟ ولكن هذا لا يصح، قال ســـائق الجرار متذمرا، إنه لشـــيء مهين بالنسبة للشاب. كان جسد الابن الصلب ثقيلا على الرجلين القويين، وبقيا برهة قصيرة مترددين، بعدها قاما بحمله ووضعه بجانب الأم على الســـرير العريـــض. جامدا، رقد الابن الأصغر بجانب الجســـد الميت، كان حريصا على ألا يلمس الأم، على ألا ينظر إليها، وثبّت عينيه في ســـقف الغرفة. الآن ستأتي الإســـعاف بالتأكيد، ربما وصلت بالفعل، ســـأذهب للاطمئنان.

سـائق الجرار كان يعتقد أنه ينبغـي جسّ نبض الأم مرة أخرى، أنا أرى أنه لم تعد هناك أي حركة في جسـدها، يؤسفني، أنا لا أشعر بشيء، ولكن كما قلت: أنا لست طبيبا.

هكذا، قال الابن الأصغر، والذي مازال مثّبتا نظراته في سقف الغرفة، لم يعـد هناك نبض، وضرب الرعد مـرة أخرى، وكأن قذيفة مدفع ضربت الحديقـة، والابن الأصغر جفل فجأة وبدأ في الارتعاش، ونظر الرجلان لبعضهما في حيرة مرة أخرى، لكن الشاب الذي كان اصطكاك أسنانه مسموعا، حاول تهدئتهما: لا بأس، لقد حدث لي ذلك قبل الآن، لكنه منذ زمن طويل على أي حال. عندما كنت صغيـرا، كنت في الثانية أو الثالثة من العمر، كما حكوا لي فيما بعد، أيقظني قصف رعد رهيب، وبدأت أيضا في الارتعاش، ولم يعرف الوالدان كيف يمكن مسـاعدتي، وقاما بضمّي، ومسحا باليد فوق رأسي وطمأناني، ولكن الطبيب الذي كان قـد وصل، رأى أن الوضع ليس سـيئا، وسـيزول مع مرور الوقت.

عليكما ألا تنزعجا، قال الابن متلعثما للرجلين. لكن انتفاضه وارتعاشه زاد حدة، وارتجّ جسده بقوة بجانب جسد الأم الهامد، حتى اهتز السرير كله بشدة، وبدأت أيضا جثة الأم على الفراش في التأرجح. إنه يعاني من صدمة، هنا صرخ سـائق الجرار، إن هذا شـيء خطير، قلبه يمكن أن يصـاب بالإجهاد! ربما ينبغي علينا أن نضـع فوطة مبللة فوق جبينـه. والآخر جلس بجانبه، ووضع يده مهدئا فوق صدره المرتعش. عاد سائق الجرار بقطعة قماش مبللة من غرفة الحمام ووضعها فوق جبين الشاب. هكذا ستحس بالراحة حالا، والآن صار سماع صفارات إنذار سيارة

الإســعاف المقتربة ممكنا، لقد اســتغرق ذلــك وقتا طويلا، قال ســائق ماكينة الحصاد لرجال الإسعاف والطبيب، أعتقد أنه لم يعد هناك شيء يمكن عمله للمرأة العجوز، من الأفضل الاهتمام بالابن، إنه يعاني من نوبة تشنج، لم أر مثل هذا في حياتي أبدا!

كان ڤالتر يلهث من التعب، وتوقف لحظة قصيرة كي يســترد أنفاســه، وفجأة سمع رنين هاتفه النقال؛ إنها مارا! ظنّ ذلك في ســعادة، وأخرج الجهاز من جيب البنطال، لكنها لم تكن مارا، بل كان سائق ماكينة الحصاد، وقد قام بوصف الأحداث له بكلمات غيــر واضحــة، لم يفهم ڤالتر عن أي شــيء يتكلــم، وكان عليه الاستفســار منه. لا تقلق بشأن نوبة التشنج التي أصابت أخاك، نعم، الإسعاف أيضا هنا، والموقف تحت السيطرة، إنه يعاني من صدمة بســبب الموت المفاجئ للأم. ماذا؟ صاح الابن الأكبر، من الذي مات؟! وفجأة غنى الأب أغنية «اقفز، اقفز، أيها الفارس»، وبدأ في التحرك إلى الأمام وإلى الخلف، من الذي مات؟ ســأل ڤالتر مــرة أخرى، الأم؟ مازال الأب يتأرجح هنا وهناك وبحركة أسرع، وبدأ يصيح بصوت أعلى: اقفز، اقفز، أيها الفارس. هذه المــرة فقد ڤالتر توازنه، وســقط إلى الخلــف، على ظهره، على أبيه، وعند الاصطدام شــعر ڤالتر بجسد أبيه النحيل، بعظامه. وانزلقا معا عدة أمتار بشــكل حاد إلى الأســفل، في الممر الزلق المنحدر. قال ڤالتر في نفســه أثناء الســقوط كان عليّ أن أسير في الطريق الآخر. بقيا راقدين في الأسفل عند الجرف المنحدر بجانب ســياج الأبقــار، وأضاء برقٌ قويّ المنحــدر، ورأى ڤالتر، أنهما قد ســقطا بين بقرتين، ڤالتر نفســه لم يشــعر بأي ألم، وكان يأمل ألا يكون قد حدث للأب شــيء، فقد كانت الســقطة

قويــة بالفعل. نهض ڤالتر وقام بنــداء أبيه، لكن الأخير لم يردّ، أيضا عندما قام بهز ساقيّ الأب، ظل الأب خامدا، وتراخت يداه إلى أســفل. أبي! صرخ ڤالتر، أبي! قام بعدها بفك حزام حقيبة الظهــر، وأنزل الأب من فوق ظهــره، وحاول وضعه بحرص على الأرض، لكــن الأب كان منهارا ولم يظهر أي علامة من علامات الحياة، لقد كُسر عُنقه عند السقوط على الأرض!.. وبينما يغلق ڤالتر عينــي الأب، أحس بأنفاس دافئة في رقبته، ونفخة عالية الصوت، وإذا به يلتفت إلى الوراء، فرأى رأســا داكنا كبيرا لبقرة متطفلة، واشــتم الرائحة الحادة لجلدها المبلل، والآن فقط سمع صوت ســائق ماكينة الحصاد قادما من التليفــون النقال المُلقى بجانبه على الأرض: مرحبا؟ هل كل شيء على ما يرام؟

قام ڤالتر بالرد، وســأله عن حال أخيــه، وأخبره بأنه ينبغي عدم نقله إلى المستشفى، وعلى الطبيب أن يحقنه بحقنة مهدئة، وســوف يهدأ. أنا ســوف أحضر على وجه السرعة، أعتقد في غضون ساعة سأصل للبيت..

أوقف تشــغيل هاتفه النقال، وأعاده إلى جيب البنطال. يجب أن أذهب إلى أخي، لا أســتطيع أن أتركه وحــده مع الأم الميتة، وبحذر رفع جســد أبيه الميت، لم يكن الأمر ســهلا، فسرعان ما كانت الجثة تســقط إلى الأمام، وأخيرا تمكــن من الدخول في أحزمة حقيبة الظهر، واســتطاع النهــوض، كي يهبط بأبيه وهو فوق ظهره من هذا المنحدر.

وأثناء ذلك صار مُحاطا بكثير من الأبقار، ســمع أنفاســها، وأحس بخارهــا الدافئ، لكنها تركته يمشــي دون تدخل، فقط عندمــا خرج من دائرتها، بدأ حيوان منها في الخوار. لماذا قمت

بالتصـــرف بهذا الشـــكل الأخـــرق؟ صاح ڤالتر فـــي أبيه الميت، لماذا لم تسمعني؟ لقد أفســـد أسلوبك العنيد البغيض كل شيء، أنت نفسك المســـؤول عن موتك، فقد كان من الممكن تجنب هذا الســـقوط، والآن أدرك ڤالتر أنه لـــم يفقد أباه فقط، ولكنه فقد أمه أيضا، وغامت عيناه بالدموع، ثم بدأ يشهق بصوت مرتفع.

انتهت

المترجم في سطور

د. عبدالحميد حسين

- من مواليد صعيد مصر عام 1958.
- حاصل على ليسانس الآداب – قسم الدراسات اليونانية واللاتينية – جامعة القاهرة 1980.
- حاصل على ماجستير الفلسفة في علوم المسرح بجامعة فيينا – النمسا 1987.
- حاصل على دكتوراه الفلسفة في علوم المسرح بجامعة فيينا – النمسا 1991.
- لديه العديد من الترجمات من اللغة الألمانية في المسرحيات والقصص القصيرة والمسرح الألماني.
- نشر كتاب «الأسطورة اليونانية في المسرح العربي المعاصر» باللغة الألمانية في ألمانيا 2004.
- له ديوانا شعر الأول «كتابة على جدار الصمت» – القاهرة 1982، والثاني «أهمية أن تكون حزينا» – تونس 2003.

المراجع في سطور

أ. د. أسامة أبو طالب

- كاتب مصري.
- حاصل على دكتوراه في علوم المسرح من جامعة فيينا.
- تولى العديد من المناصب الشرفية؛ منها عضوية المجلس الأعلى للثقافة - مصر من عام 2000 إلى 2005.
- له عدد من المؤلفات باللغة العربية منها: البطل التراجيدي مسلما 2012.
- له العديد من الترجمات من اللغة الألمانية؛ منها نصوص من المسرح الألماني المعاصر 2002.
- ألقى عددا من المحاضرات باللغتين الألمانية والعربية أهمها: نحو خارطة ثقافية لمصر في المركز الثقافي المصري في فيينا.
- كتب العديد من الدواوين الشعرية من أهمها: الوقوف على أطلال طيبة، ولا أبكي ولا أضحك.
- قام بإعداد وتقديم عدد من البرامج الأدبية والفنية بالتلفزيون والإذاعة منها: مسرح أبو الفنون بقناة التنوير المصرية.
- كتب عدة سيناريوهات سينمائية وتلفزيونية منها: الاحتياط واجب.. فيلم روائي 1982.
- له الكثير من الكتابات الصحافية؛ منها مقال أسبوعي كل يوم أحد بجريدة «الوفد» من 2011 - 2012.
- قام بتأسيس عدد من الدورات والورش التدريبية في فنون العرض.

يورج أكلين

كاتب وروائي سويسري معاصر.. ولد في 20 فبراير 1945.. في مدينة زيورخ بسويسرا، وحاصل على الدكتوراه في علم الاجتماع عام 1974 من جامعة بريمن بألمانيا.

من أهم مؤلفاته روايات «رجل الكانجرو»، «أغنية الضفدع»، «الثقة شيء طيب»، و«الأب».

حصل على عدد من الجوائز الأدبية في ألمانيا وسويسرا، منها جائزة تسوليكر للفن عن مجمل أعماله الأدبية وجائزة مدينة زيورخ

الأب

تعتبر رواية «الأب» للروائي السويسري المعاصر يورج أكلين تسوية حساب الابن مع أبيه عبر رحلة في ذاكرة الابن. والذي يقوم بدراسة عائلية بعين محلل نفساني.

تطرح الرواية - التي لا تخلو من ملامح السيرة الذاتية - العلاقة بين الأب والابن وموضوع الشيخوخة والمرض والعجز. ويعبر المؤلف بشكل مؤثر وقاسٍ وبأسلوب ساخر ولغة تميل إلى لغة كتّاب مسرح العبث. عن قضايا إنسانية واقعية خطيرة. يعاني منها المجتمع الأوروبي المعاصر. منها قضية التصالح مع الذات. ومواجهة الماضي وتعريته دون مواربة. وكذلك محاولة التغلب عليه.

يكتب أكلين نثرا موجعا. يتميز بالجرأة الشديدة. ويقتحم نفسية الابن. ويتوغل فيها. وليس هذا بغريب عن المؤلف الذي يعمل محللا نفسانيا وله عيادة للتحليل النفسي في مدينة زيورخ.

إنه يقدم نموذجا مغايرا للعلاقة بين الأب والابن. يرى فيه القارئ صورة الأب كطاغية مستبد.